جامعة الأزهر
كلية أصول الدين – القاهرة

إتحـــاف المـــودود
بعبـــر أصحاب الأخـــدود

دكتـــور
أحمد رمضان مصطفى دياب
مدرس التفسير وعلوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده. والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. سيدنا محمد وعلى آله وصحبه. ومن اهتدى بهداه واتبع نهجه ...

اللهم إنا عبيدك ، بنو عبيدك. بنو إمائك. نواصينا بيدك. ماضٍ فينا حكمك. عدل فينا قضاؤك. نسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك. أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور أبصارنا ، وجلاء أحزاننا ، وذهاب همومنا ، وكشف غمومنا.

اللهم اجعله لنا في الدنيا قريناً ، وفي القبر مؤنساً ، وفي القيامة شفيعاً ، وعلى الصراط نوراً ، وإلى الجنة رفيقاً ، ومن النار ستراً وحجاباً ، وإلى الخيرات كلها دليلاً وإماماً. بفضلك وكرمك وجودك يا أكرم الأكرمين.

أما بعد

فقد خلق الله عز وجل الإنسان بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وشرفه بالعبودية له ، وكرمه بالإسلام ، وفضله بالعقل ، وأمره بالتوحيد الخاص.

وتكفل سبحانه وتعالى برزقه ، كما تكفل بإصلاح شخصيته الإنسانية ، وتهذيب نفسه البشرية ، وحسن تأديبها ، والترقي بها إلى درجات الكمال البشري.

فهو سبحانه وحده العليم بما يصلح حال الإنسان ، ويهذب نفسه ، ويحقق له السعادة والفوز في الدنيا والآخرة.

ولقد كان هذا الإصلاح وذلك التهذيب بالمنهاج الرباني الذي بعث الله به الرسل إلى البشرية جمعاء ، يطمون الناس الحق ، ويلهمونهم الرشد ، ويهدونهم إلى صراط الله المستقيم.

﴿أصحاب الأخدود في القرآن الكريم﴾

ذكر الله تعالى قصة أصحاب الأخدود في سورة البروج ، فقال سبحانه وتعالى : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۞ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۞ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۞ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۞ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۞ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۞ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۞ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [١].

معنى الآيات

تبدأ السورة الكريمة – قبل الإشارة إلى حادث الأخدود – بهذا القسم الإلهي حيث أقسم الله تبارك وتعالى بالسماء ذات البروج. والمراد بالسماء جنس السماوات الشامل لكل سماء ، أو السماوات كلها ، أو السماء الدنيا ، وهو الظاهر ، لأنها المعروفة ، ولأن البروج فيها ، فهو كقوله تعالى : (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ) [٢].

* والبروج جمع برج ، وأصل معنى البرج : الأمر الظاهر ، مأخوذ من التبرُّج [٣] ، ثم صار حقيقة عرفية للقصر العالي ، لأنه ظاهر للناظرين ، ويقال لما ارتفع من سور المدينة برج أيضاً.

* وقد اختلف أهل التفسير في المراد بالبروج إلى أقوال عدة :

أحدها : البروج هي المنازل[٤] التي تنتقل فيها الأجرام

---

(١) أول سورة البروج.

(٢) أول الآية ٥ من سورة الملك.

(٣) قال في الصحاح ١ / ٢٨٠ مادة برج : التبرج : إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال.

(٤) وهو مروي عن أبي عبيدة ويحيى بن سلام.

أثناء دورانها ، وهي مجالاتها التي لا تتعداها في جريانها في السماء ، وهي اثنا عشر برجاً ، وهي منازل الشمس والقمر والكواكب المعروفة ، التي تقطعها الشمس في سنة ، والقمر في ثمانية وعشرين يوماً ، تسير الشمس في كل برج منها شهراً ، ويسير القمر في كل برج منها يومين وثلث يوم ، فذلك ثمانية وعشرون يوماً ، ثم يستتر ليلتين.

الثاني : البروج هي النجوم العظام[١] ، سميت بروجاً لظهورها وارتفاعها

ومثله قوله تعالى : (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً...)[٢].

الثالث : المراد بالبروج القصور[٣] ، فالبروج في كلام العرب هي القصور العالية المرتفعة ، وعليه ورد قوله تعالى :(وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ) [٤].

الرابع : المراد بالبروج : الخَلْق الحسن[٥] ، وكأنها إشارة إلى إبداع خلق السماوات وما فيها ، فيكون كقوله تعالى:(أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ) [٦].

* وقيل في معنى البروج غير ذلك [٧].

---

(١) وهو مروي عن الحسن وقتادة ومجاهد والضحاك.

(٢) أول الآية ٦١ من سورة الفرقان.

(٣) وهو مروي عن ابن عباس وعكرمة.

(٤) من الآية ٧٨ من سورة النساء.

(٥) وهو مروي عن المنهال بن عمرو.

(٦) الآية ٦ من سورة ق.

(٧) راجع : جامع البيان ٣٠ / ١٢٧ ، تفسير القرطبي ١٩ / ١٨٧ ، التفسير الكبير ٣١/١٠٤ ، الكشاف ٤ / ٧١٦ ، تفسير ابن كثير ٤ / ٤٩٣ ، فتح القدير ٥ / ٤١١ ، روح المعاني ٣٠ / ١٥٢.

وقد رجح الإمام الطبري – رحمه الله – القول الأول[١].

■ وأرى أنه لا مانع من تفسير البروج بكل ما ذكرَ ، فكلها أقوال صحيحة ، يحتملها اللفظ القرآني ، ويجوز تفسير البروج بها.

* فقد أحسن الله تبارك وتعالى خلق السماوات وما فيها ، وزينها بالنجوم والكواكب التي شبّهَت في علوها وارتفاعها بالقصور العالية ، وجعل الله عز وجل – في السماء – لتلك النجوم منازل تسكنها وتجري فيها لا تتعداها ، يقول الحق تبارك وتعالى :(وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۞ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۞ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)[٢].

* وإنما حَسُنَ القسم بالسماء لما فيها من عجيب حكمة الباري جل جلاله وبديع صنعه ، والله أعلم.

■ قوله تعالى : (وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ).

قسم ثانٍ ، معطوف على القسم الأول ، أي وأقسم باليوم الموعود به ، وهو يوم القيامة باتفاق المفسرين ، وقد ورد به الخبر عن المعصوم ﷺ ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: (الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) [٣].

---

(١) جامع البيان ٣٠ / ١٢٧ ، ١٢٨.

(٢) الآيات ٣٧ : ٤٠ من سورة يس.

(٣) بعض حديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، باب ومن سورة البروج

فيوم القيامة هو الذي وعد الله الخلائق بمجيئه ، وفيه يقع الحساب والجزاء على الأعمال ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، وذلك كقوله تعالى : (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۞ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ) [١].

وحَسُنَ القَسَم بيوم القيامة لعظمته وشرفه وما فيه من العجائب ، وكذلك لإرهاب منكريه ، والله أعلم.

■ قوله تعالى : (وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ).

قَسَم ثالث ، معطوف على ما قبله ، أي وأقسم بشاهد ومشهود.

والتنكير فيهما للإبهام في الوصف ، أي وشاهد ومشهود لا يُكْتَنَه[٢] وصفهما ، وقيل : التنكير فيهما للمبالغة في الكثرة.

* وقد اختلف أهل التفسير في المراد بالشاهد والمشهود على أقوال كثيرة ، منها :

الشاهد مَنْ يشهد في ذلك اليوم من الخلائق ، أي يحضر فيه ، والمشهود ما يُشاهد في ذلك اليوم من العجائب.

، برقم ٣٣٥٠ ، وقال : هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عُبيدة ، وهو يُضَعَّفُ في الحديث ، سننه ٥ / ٢٢٣ وأخرجه الطبري في الجامع ٣٠ / ١٢٨.

قلتُ : وهو حديث حسن لغيره ، وله شاهد عند الحاكم بلفظ : (الشاهد يوم عرفة ويوم الجمعة والمشهود هو الموعود يوم القيامة) ، وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي في التلخيص،المستدرك٢/ ٥٦٤.

(١) آخر سورة المعارج.

(٢) قال في الصحاح ٢ / ١٦٤٠ مادة كنه : (كُنْهُ الشيء : نهايتُهُ ، وقولهم : لا يكْتَنِهُهُ الوصفُ ، بمعنى : لا يَبلغ كُنْهَه ، أي قَدْرَهُ وغايَتَهُ) أ. هـ.

قلتُ : وهو الموافق للقَسَمِ السابق ، أعني(واليوم الموعود).

وقيل : الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة.

وهذا قول الأكثر ، وعليه الجمهور من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم ،

وهو المروي أيضاً عن النبي ﷺ في الحديث السابق ، ففيه : (الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، و الْيَوْمُ الْمَشْهُودُ يَوْمُ عَرَفَةَ ، والشَّاهِدُ يَوْمُ الجُمُعَةِ) [1].

وقيل الشاهد محمد رسول الله ﷺ والمشهود يوم القيامة.

ولعله مأخوذ من قوله تعالى لنبيه ﷺ : (وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيداً)[2] ومن قوله تعالى عن يوم القيامة : (ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ) [3].

وقيل : الشاهد محمد ﷺ والمشهود يوم الجمعة.

وقيل : الشاهد هو الله تعالى والمشهود يوم القيامة.

وقيل : الشاهد هو الله عز وجل والملائكة وأولو العلم ، والمشهود به الوحدانية ، وإن الدين عند الله الإسلام.

وقيل : الشاهد الإنسان والمشهود يوم القيامة.

وقيل : الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم القيامة.

وقيل : الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم النحر ، وقيل العكس.

وقيل : الشاهد يوم النحر والمشهود يوم الجمعة .

وقيل : الشاهد المَلَك الحفيظ والمشهود – عليه – هم آدم وذريته.

وقيل : الشاهد هم الأنبياء والمشهود – عليهم – هم الأمم.

---

(١) هو حديث الترمذي السابق.

(٢) آخر الآية ٤١ من سورة النساء.

(٣) آخر الآية ١٠٣ من سورة هود.

وقيل : الشاهد هم الأنبياء والمشهود – له – محمد ﷺ.

وقيل : الشاهد هذه الأمة ونبيها ﷺ والمشهود – عليهم – الأمم السابقة.

وقيل : الشاهد هو عيسى عليه السلام والمشهود – عليه – أمته.

وقيل : الشاهد الليالي والأيام والمشهود – عليه – بنو آدم.

وقيل : الشاهد الحجر الأسود والمشهود الحجيج.

وقيل : الشاهد مخلوقاته تعالى والمشهود – به – الوحدانية.

وقيل : الشاهد جوارح الإنسان والمشهود – عليه – أصحابها.

وقيل غير ذلك [1] ، وفيما ذكر غُنْيَة.

وأجاز الألوسي أن يُراد بالشاهد : الطفل الذي قال : يا أماه اصبري فإنك على الحق – كما سيأتي إن شاء الله – والمشهود له أمه والمؤمنون ، لأنه إذا كانت أمه على الحق فسائر المؤمنين كذلك[2].

* والذي أميل إليه هو ما ذهب إليه الإمام الطبري رحمه الله ، بعد أن ذكر طائفة من تلك الأقوال ، حيث قال :

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله أقسم بشاهد شَهِدَ ومشهود شُهِدَ ، ولم يخبرنا مع إقسامه بذلك أي شاهد وأي مشهود أراد ، وكل الذي ذكرنا أن العلماء قالوا : هو

---

(١) راجع : جامع البيان ٣٠ / ١٢٨ وما بعدها ، التفسير الكبير ٣١ / ١٠٤ وما بعدها الكشاف ٤ / ٧١٦ ، البحر المحيط ١٠ / ٤٤٣ ، تفسير ابن كثير ٤ / ٤٩٣ ، تفسير القرطبي ١٩ / ١٨٧ ، ١٨٨ ، تفسير الخازن ٤ / ٤١١ ، روح المعاني ٣٠ / ١٥٥.

(٢) روح المعاني ٣٠ / ١٥٦.

المعني مما يستحق أن يقال له (شاهد ومشهود) [١].

قلتُ : وهو كلام حسن.

• وبعد هذا القسم ، ورسم هذا الجو ، تجئ الإشارة إلى حادث أصحاب الأخدود في لمسات قلائل :

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۞ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۞ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۞ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۞ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

وتبدأ الإشارة إلى الحادث بإعلان النقمة على أصحاب الأخدود :

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ).

وهي كلمة تدل على الغضب ، غضب الله على الفئة وفاعليها ، كما تدل على شناعة الذنب الذي يثير غضب الحليم ونقمته ، ووعيده بالقتل لفاعليه[٢].

و (قتل) بمعنى لعنَ ، قال الواحدي : في قول الجميع[٣] ، وهو المروي

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، فعنه أنه قال : كل شيء في القرآن(قتل) فهو لعن[٤].

وقرئ (قتّل) بالتشديد[٥] ، لقصد التكثير والمبالغة ، وهي قراءة شاذة.

---

(١) جامع البيان ٣٠ / ١٣١.

(٢) في ظلال القرآن ٦ / ٣٨٧٣.

(٣) فتح القدير ٥ / ٤١٢.

(٤) تفسير القرطبي ١٩ / ١٨٩.

(٥) وهي قراءة الحسن رضي الله عنه ، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر / ٥٧٨ ، مختصر في شواذ القرآن / ١٧١ ، القراءات الشاذة ، للقاضي/٩٤.

والأخدود : الشق في الأرض يُحفَر مستطيلاً ، وجمعه أخاديد[١].

• وقد اختلف في هذه الجملة ، أعني قوله تعالى (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) ، هل هي جواب القسم ، أو دليل الجواب ، أو غير ذلك.

فقيل : هي جواب القسم ، على إضمار حرف اللام ، والتقدير : لقتل أصحاب الأخدود ، وأنشدوا شاهداً له قول الشاعر :

حلفت لها بالله حلفة فاجر
لناموا فما إن من حديث ولا صالي[٢]

أو على إضمار حرف اللام وقد ، والتقدير : لقد قتل ، كقوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا)[٣] ، فتقديره : لقد أفلح.

• وعلى هذا تكون الجملة خبرية ، أي إخبار من الله تعالى عن قتلهم.

• وقيل : جواب القسم محذوف ، تقديره : لتبعثنّ ، أو إن الأمر حق ، ونحوهما ، وأما قوله تعالى(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) فهو دليل الجواب ، أي ما يدل على القسم ، كأنه قيل : أقسم بهذه الأشياء أنهم – يعني كفار قريش – ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود ، وذلك أن السورة وردت لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان ، وتصبيرهم على أذيّة الكفرة

---

(١) أفاده الصحاح ١ / ٤٠١ ، لسان العرب ٣ / ١٦٠ مادة خدد.

(٢) هو لأمرئ القيس ، وإن ومن زائدتان للتوكيد ، والحديث بمعنى المتحدث ، والصالي بمعنى المصطلي بالنار ، يقول : طرقت محبوبتي ليلاً فخافت من الرقباء حولها ، فحلفت لها إن القوم نيام ، وأن ليس فيهم يقظان محدث أو مصطلٍ بنار ، والله أعلم ، مشاهد الإنصاف ٢ / ١٠٩.

(٣) الآية ٩ من سورة الشمس.

والمشركين ، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم : من التعذيب على الإيمان ، وإلحاق أنواع الأذى ، وصبرهم وثباتهم على ذلك ، حتى يأتسوا بهم ، ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ، ويعلموا أن كفار قريش عند الله تعالى بمنزلة أولئك المعذبين المُحَرّقين بالنار[١] ، ملعونون مثلهم ،

أحقاء بأن يقال فيهم : قتلت قريش ، كما قتل أصحاب الأخدود[٢].

* وعلى هذا تكون الجملة دعائية لا خبرية.

فيكون قوله تعالى : (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) دعاء من الله عليهم بالقتل ، فهو كقوله تعالى : (قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ)[٣] ، ويكون القتل هنا عبارة عن أشد اللعن والطرد ، لاستحالة الدعاء منه سبحانه حقيقة ، فأريد لازمه من السخط والطرد عن رحمته جل جلاله[٤].

* وقيل : إن جواب القسم مذكور ، واختُلف فيه ، فقيل هو قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ...) الآية.

وقيل : جواب القسم قوله تعالى : (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ).

واعترض عليه بطول الفصل ، حتى استقبحه القرطبي رحمه الله[٥].

* والأظهر أن الجملة دعائية ، دالة على الجواب المحذوف ، كأنه قيل : أقسم بهذه الأشياء أن كفار مكة ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود[٦] ، والله أعلم.

---

(١) يعني من يحرقون أهل الإيمان بالنار.

(٢) الكشاف ٤ / ٧١٧ ، تفسير أبي السعود ٥ / ٨٥٣.

(٣) الآية ١٧ من سورة عبس.

(٤) روح المعاني ٣٠ / ١٥٧.

(٥) تفسير القرطبي ١٩ / ١٨٩.

(٦) أنوار التنزيل ٢ / ٤٣٢ بتصرف.

* ولا يخفى أن ما سبق يستقيم على تفسير (أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) بالقاتلين ، فهي إما دعاء عليهم ، أي لعن أصحاب الأخدود ، وإما إخبار عن قتلهم ، ويكون المراد أن القاتلين قُتِلُوا بالنار ، على ما ذكره البعض من أن النار عادت عليهم فقتلتهم[١].

* أما إذا فُسِّرَ (أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) بالمؤمنين المقتولين.

فيكون ذلك خبراً عما حدث لهم من الإحراق بالنار ، لا دعاءً عليهم.

* وأرى أن تفسير (أصحاب الأخدود) بالقاتلين هو الظاهر ، والموافق لسياق الآيات، والله أعلم.

▪ قوله تعالى : (النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ).

(النار) بدل اشتمال من (الأخدود) لأن الأخدود مشتمل على النار ، كأنه قيل : قتل أصحاب النار ذات الوقود ، أو بدل كل من كل.

و (ذات الوقود) وصف للنار بغاية العظمة وارتفاع اللهب ، بسبب ما ألقي فيها من الحطب الكثير وأبدان الناس.

وقراءة الجمهور (الوَقُود) بفتح الواو ، وهو الحطب الذي توقد به ، وقرئ (الوُقُود) بضم الواو[٢] ، على المصدر ، وهي

---

(١) فقد روي عن الربيع بن أنس وأبي العالية وابن إسحاق قولهم : نجى الله المؤمنين الذين ألقوا في النار بقبض أرواحهم قبل أن تمسهم النار ، وخرجت النار على مَن على شفير الأخدود من الكفار فأحرقتهم.

تفسير الخازن ٤ / ٤١٣ ، البحر المحيط ١٠ / ٤٤٤ ، روح المعاني ٣٠ / ١٦٠.

وهو مخالف لما عليه الجمهور ، وما دلت عليه الروايات ، فلا يعول عليه ، والله أعلم.

(٢) مصدر (وقد) كوعد ، وهي قراءة الحسن وغيره ، إتحاف فضلاء البشر / ٥٧٨

قراءة شاذة ، معناها: ذات الاتقاد والالتهاب ، وقراءة الجمهور أظهر ، والله اعلم.

* قوله تعالى : (إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ).

يعني : إذ هؤلاء الكفار من أصحاب الأخدود على النار قعود ، ومعنى (عليها) على ما يدنوا منها ، في مكان مشرف عليها من حافات الأخدود ، إذ كونهم على النار حقيقة غير متصور ، فهو مجاز عن القرب ، يقال : قعد على النار. أي قعد على مكان قريب منها ، ومنه قول الأعشى :

وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى
وَالمُحَلَّقُ[1]

ويجوز أن تكون على بمعنى عند ، كما في قوله تعالى (وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ)[2] ، أي لهم عندي ، فمعنى (عليها) أي عندها ، ويكون المراد : أنهم قعود عند النار يعذبون المؤمنين ويعرضونهم على الكفر.

و (إذ) ظرف لـ (قتل) ، والمعنى : لعنوا في ذلك الوقت الذي هم فيه على النار قعود.

قوله تعالى : (وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ).

هذه الآية الكريمة مع ما سبقها تعبير قرآني رائع ، يصور موقف الجبابرة ومشهدهم ، وهم يوقدون النار ، ويلقون بالمؤمنين والمؤمنات فيها ، وهم قعود عليها ، قريبون من عملية التعذيب البشعة ، يشاهدون أطوار التعذيب وفعل النار في الأجسام في لذة وسعار ، كأنما يشبتون في

(١) مختصر في شواذ القرآن / ١٧١ ، القراءات الشاذة / ٩٤.

(٢) ومعنى كونهما على النار ، أنهما على جانبيها ، لأن المتلقى يكون أعلى منها بحيث يعد يده فوقها ، مشاهد الإنصاف ٢ / ٥٢.

(٢) أول الآية ١٤ من سورة الشعراء.

حسهم هذا المشهد البشع للشيع[1].

والضمير في (هم) عائد على الكفار الذين خدوا الأخدود.

وفي ذكر (المؤمنين) تغليب ، والمراد : بالمؤمنين والمؤمنات.

وقوله تعالى (شهود) يحتمل أن يكون بمعنى حضور ، كما يحتمل أن يكون المراد منه الشهود الذين تثبت الدعوى بشهادتهم.

أما على الاحتمال الأول فالمعنى أن القاتلين الجبابرة كانوا حضوراً عند ذلك العمل ، يشاهدون ذلك ، ويكون الغرض من ذكر ذلك إما وصفهم بقسوة القلوب وإما وصفهم بالجد في تقرير كفرهم وبباطلهم ، وإما وصف المؤمنين المقتولين بالجد في دينهم ، والإصرار على حقهم ، والتمسك بإيمانهم.

فإن قيل : إن المراد بالشهود الحضور ، فكان الظاهر أن يقول : وهم لما يفعلون شهود ، ولا يقال :وهم على ما يفعلون شهود؟

والجواب : إنما ذكر (على) ليدل على أنهم – على قبح فعلهم بالمؤمنين – كانوا حاضرين ، مشاهدين لتلك الأفعال القبيحة.

وهو قريب من قول بعض العلماء : إن (على) بمعنى(مع) ، ومعنى الآية : وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب حضور.

وأما الاحتمال الثاني ، وهو أن يكون المراد من الشهود مَن تثبت الدعوى بشهادتهم ، فمعناه : أنهم جُعلوا شهوداً ، يشهد بعضهم لبعض عند الملك ، أن أحداً منهم لم يفرط فيما أمر به وفوض إليه من التعذيب ، ويجوز أنهم يشهدون يوم القيامة بما فعلوا

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٨٧٣.

بالمؤمنين[١] ، (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[٢] ، والله أعلم.

* قوله تعالى : (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۞ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

(وما نقموا منهم) يعني ما كرهوا ، أو ما عابوا ، أو ما أنكروا[٣] عليهم

إلا إيمانهم بالله عز وجل.

فما كان للمؤمنين من ذنب عندهم ولا ثأر إلا أنهم آمنوا بالله تعالى ، فتلك جريمتهم التي ارتكبوها واستحقوا عليها العقاب.

وهذا من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، كما في قول الشاعر : وَلا عَيْبَ فيهِم غَيْرَ أنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِراعِ الكَتَائِبِ[٤]

ونظيره قوله تعالى : (هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ)[٥]

---

(١) التفسير الكبير ٣١ / ١٠٩ ، ١١٠ بتصرف.

(٢) الآية ٢٤ من سورة النور.

(٣) عبارة الراغب في المفردات / ٥٠٤ مادة نقم : (نَقِمْتُ الشيءَ ونَقَمْتُهُ إذا نَكَرْتَهُ ، إمَّا باللسانِ وإمَّا بالعُقُوبَةِ ، وَالنِّقْمَةُ : العُقُوبَةُ) أ. هـ.

(٤) هو للنابغة الذبياني ، يصف فرساناً بالشجاعة والإقدام ، والفلول : جمع فلّ ، وهو كسر في حد السيف ، والقراع : المضاربة ، والكتائب : الجماعات ، وفلول السيف كناية عن كمال الشجاعة ، فكونه من العيب محال ، فهو من تأكيد الشيء بما يشبه نقيضه ، فكأنه قال : إن يكن فيهم عيب فهو هذا ، وهذا لا يتصور أنه عيب ، فلا عيب فيهم أصلاً ، كقولك : فلان لا عيب فيه إلا أنه سخي.
مشاهد الإنصاف ٢ / ١٣٧ ، حاشية الشهاب ٣ / ٢٣٦.

(٥) من الآية ٥٩ من سورة المائدة.

، وقوله تعالى: (وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا .....)[١].

وقراءة الجمهور (نَقَمُوا) بفتح القاف ، وقرئ (نَقِمُوا) بكسرها[٢] ، وهي قراءة شاذة ، والفتح أفصح.

* وإنما قال : (إلا أن يُؤْمِنُوا) بلفظ المستقبل ، مع أن الإيمان قد وجدَ منهم في الماضي ، لأن تعذيبهم والإنكار عليهم إنما كان واقعاً على الإيمان المستقبلي ، وليس الإيمان الماضي ، فلو كفروا في المستقبل لم يُعَذَّبوا على ما مضى ، فكأنه قيل : إلا أن يستمروا ويدوموا على إيمانهم[٣].

* ثم ذكر سبحانه وتعالى الأوصاف التي يستحق بها أن يُؤْمَن به ويُعبد.

فأولها : (العزيز). وهو القادر الذي لا يُغلَب ، والقاهر الذي لا يُدفَع ، فهو إشارة إلى القدرة التامة.

وثانيها : (الحميد). أي المحمود بإحسانه إلى خلقه ، الذي يستحق الحمد والثناء في كل وقت وحال ، فهو إشارة إلى العلم التام.

وثالثها : (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ). لا شريك له سبحانه ولا نديد فهو مالكهما ، والقيم بهما ، ولو شاء لأفناهما ، فهو إشارة إلى الملك التام

* وإنما أخر هذه الصفة عن الأولين. لأن الملك التام لا يحصل إلا بحصول الكمال في القدرة والعلم.

---

(١) أول الآية ١٢٦ من سورة الأعراف.

(٢) منسوبة إلى أبي حيوة وغيره ، مختصر في شواذ القرآن / ١٧١.

(٣) التفسير الكبير ٣١ / ١١٠ ، البحر المحيط ١٠ / ٤٤٥ ، روح المعاني ٣٠ / ١٦١ حاشية الجمل ٤ / ٥١٣.

فثبت أن مَن كان موصوفاً بتلك الصفات فهو المستحق للإيمان به دون غيره ، فكيف حكم هؤلاء الكفار الجهال بكون مثل هذا الإيمان ذنباً يستوجب العقاب[1].

* ثم ختم الله تعالى الآيات بقوله : (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

فهو سبحانه العليم بأفعال خلقه ، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وسيجازي هؤلاء بأعمالهم وهؤلاء بأعمالهم.

وهو وعد ووعيد ، وعد عظيم للمؤمنين الطائعين ، ووعيد عظيم للكافرين المجرمين ، وهي لمسة رائعة تطمئن قلوب المؤمنين ، وتهدد العتاة المتجبرين ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

* ولعلَّ سر التذييل بقوله تعالى(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) بعد ذكر الصفات السابقة. للإشارة إلى أنه سبحانه وتعالى لو شاء لمنع الجبابرة من تعذيب المؤمنين ، ولأطفأ نيرانهم ، إلا أن المعتبر عنده سبحانه من الأفعال عواقبها ، فهو - عز وجل - وإن كان قد أمهل لكنه ما أهمل ، فإنه سبحانه يوصل ثواب المؤمنين إليهم وعقاب الكفرة إليهم ، ولكنه تعالى لم يعاجلهم بذلك. لأنه لم يفعل إلا على حسب المشيئة أو المصلحة ، وذلك على سبيل التفضل ، والله أعلم.

■ وإلى هنا تنتهي رواية الحادث ....

تنتهي رواية الحادث في هذه الآيات القصار ، التي تملأ القلب بشحنة من الكراهية لبشاعة

---

(١) التفسير الكبير في الموضع السابق بتصرف.

الفعلة وفاعليها ، كما تستجيش فيه التأمل فيما وراء الحادث ووزنه عند الله ، وما استحقه من نقمته وغضبه ، فهو أمر لم ينته بعد عند هذا الحد ، ووراءه في حساب الله ما وراءه[1].

* وإلى هذا القدر من البيان يثور في النفس سؤال ، يقول :

مَن هم أصحاب الأخدود ، ومتى كانوا ، وما هي قصتهم ؟

وللإجابة عن ذلك نقول ، وبالله التوفيق :

اختلف أهل التفسير في أصحاب الأخدود وحديثهم ، وذكروا في ذلك أقوالاً

فوق العشرة ، ولكل منها قصة.

وتلك الأقوال - في مجملها - تتضمن أن ناساً من الكفار خدوا أخدوداً في الأرض ، وسجروه ناراً ، وعرضوا المؤمنين عليها ، فمن رجع عن دينه تركوه ، ومن أصر على الإيمان ألقوه في النار وأحرقوه ....

وأكتفي من هذه الأقوال بأصحها وما اشتهر منها.

وهو ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (كان ملك فيمن كان قبلكم. وكان له ساحر. فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت. فابعث إليّ غلاما أعلمه السحر. فبعث إليه غلاما يعلمه. فكان في طريقه ، إذا سلك راهب. فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه. فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه. فشكا ذلك إلى الراهب. فقال : إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي. وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر.

---

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٨٧٤.

فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس[١] ، فقال : اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟

فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة ، حتى يمضي الناس. فرماها فقتلها ، ومضى الناس.

فأتى الراهب فأخبره. فقال له الراهب : أي بني ! أنت اليوم أفضل مني ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلى[٢] ، فإن ابتليت فلا تدل علي.

وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص[٣] ويداوي الناس من سائر الأدواء.

فسمع جليس للملك كان قد عمي ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : ما ههنا لك أجمع ، إن أنت شفيتني. فقال : إني لا أشفي أحداً ، إنما يشفي الله. فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك. فآمن بالله . فشفاه الله.

فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس. فقال له الملك : من رد عليك بصرك؟ قال : ربي. قال : ولك رب غيري ؟ قال : ربي وربك الله. فأخذه

فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام.

فجيء بالغلام. فقال له الملك : أي بني ! قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل. فقال : إني لا أشفي أحداً

(١) قيل : كانت الدابة أسداً ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم ما كانت.

(٢) من الابتلاء بمعنى الاختبار.

(٣) الأكمه : الذي يولد أعمى ، الصحاح ٢ / ١٦٤٠ مادة كمه.

والأبرص : من به داء البرص ، وهو داء معروف ، نسأل الله العافية منه ومن كل داء وهو بياض يقع في الجسد ، ورجل أبرص : في جلده لُمَعُ بياضٍ ، لسان العرب ٧/٥ مادة برص.

، إنما يشفي الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب.

فجئ بالراهب. فقيل له : ارجع عن دينك. فأبى. فدعا بالمئشار[١] فوضع المئشار في مفرق رأسه ، فشقه به حتى وقع شقاه.

ثم جئ بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك فأبى. فوضع المئشار في مفرق رأسه ، فشقه حتى وقع شقاه.

ثم جئ بالغلام ، فقيل له : ارجع عن دينك. فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا ، فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم ذروته[٢] ، إن رجع عن دينه ، وإلا فاطرحوه. فذهبوا به فصعدوا به الجبل. فقال : اللهم ! اكفنيهم بما شئت.

فرجف بهم الجبل فسقطوا.

وجاء يمشي إلى الملك. فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله.

فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به فاحملوه في قرقور[٣] ، فتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه. فذهبوا به، فقال : اللهم! اكفنيهم بما شئت. فانكفأت بهم السفينة فغرقوا. وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال كفانيهم الله.

فقال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، وتصلبني على جذع ، ثم خذ سهما من كنانتي ، ثم

(١) المئشار : مهموز في رواية الأكثرين ، ويروى : المنشار بالنون ، وهما لغتان صحيحتان.

(٢) يعني أعلاه.

(٣) القرقور – بضم القافين – السفينة الصغيرة وقيل الكبيرة ، وعبارة الجوهري : السفينة الطويلة ، الصحاح ١ / ٦٣٧ مادة قرر.

ضع السهم في كبد القوس[١] ، ثم قل : باسم الله رب الغلام ، ثم ارمني. فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني.

فجمع الناس في صعيد واحد ، وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهما من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال : باسم الله رب الغلام ، ثم رماه فوقع السهم في صدغه ، فوضع يده في صدغه في موضع السهم ، فمات.

فقال الناس : آمنا برب الغلام. آمنا برب الغلام ، فأتى الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر ؟ قد والله ! نزل بك حذرك ، قد آمن الناس ، فأمر بالأخدود في أفواه السكك[٢] فخدت وأضرم النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها[٣] ، أو قيل له : اقتحم.

ففعلوا ، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها ، فتقاعست[٤] أن تقع فيها.

فقال لها الغلام : يا أمه ! اصبري. فإنك على الحق)[٥].

---

(١) كبد القوس : وسطها.

(٢) السكك بمعنى الطرق ، وأفواهها : أبوابها.

(٣) فأحموه فيها : ارموه فيها ، من قولهم حميت الحديدة وغيرها إذا أدخلتها النار لتحمى ، ويروى (فأقحموه) بالقاف يعني اطرحوه فيها كرهاً ، مسلم بشرح النووي٩ / ٣٦٠.

(٤) توقفت ولزمت موضعها وكرهت الدخول في النار ، المرجع السابق.

(٥) أخرجه مسلم – واللفظ له – في كتاب الزهد والرقائق ، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام ، حديث رقم ٣٠٠٥ ، صحيح مسلم بشرح النووي ٩ / ٣٥٧ وما بعده وأخرجه – بنحوه – الترمذي في كتاب التفسير ، باب سورة البروج ، حديث رقم ٣٣٥١ ، سننه ٥ / ٢٢٣ وما بعدها.

وبعد :

فتلك كانت قصة أصحاب الأخدود كما وردت في السنة النبوية المطهرة ، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السليم.

والمسلم العاقل من شأنه أن لا تمضي عليه مثل هذه الأحداث دون أن يتعلم منها الدروس والعبر والعظات.

وحادث أصحاب الأخدود – كما هو ظاهر – يوقف المسلم على دروس عظيمة ، وعظات جليلة ، وعبر كثيرة جداً ، يطول المقام بذكرها ، أذكر منها على سبيل المثال – لا الحصر – الدروس الآتية ،وعلى الله قصد السبيل ، ومنه العون والتوفيق.

الدرس الأول : تفسير القرآن بالسنة.

إن القارئ لحادث أصحاب الأخدود في القرآن الكريم يلحظ أنه ورد فيه مجملاً ، في ست آيات قصار فقط ، وذلك في قوله تعالى : (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۞ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۞ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۞ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۞ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

والقرآن الكريم بذلك لم يتعرض لتفاصيل الحادث ، ولم نتعرف من خلال آياته البينات على ما عرفناه من السنة النبوية المطهرة.

وأخرجه أحمد في مسنده من حديث صهيب رضي الله عنه ، حديث رقم ٢٣٨١٥ ، المسند ١٧ / ١٧٣ وما بعدها.

وأخرجه الطبري في الجامع ٣٠ / ١٣٣ ، ١٣٤.

وأورده عدد كبير من المفسرين في تفسير سورة البروج..

وهذا يؤكد لنا بوضوح لا غموض فيه ولا التواء حاجة القرآن وتفسيره إلى السنة النبوية المطهرة ، فلن نستطيع – بأي حال من الأحوال – أن نستغني في تفسيرنا للقرآن الكريم عن السنة النبوية.

ومما أثر عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه : (لولا السنة ما فهم أحد منا القرآن)[1] ، وروي عن الأوزاعي رضي الله عنه قوله : (الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب)[2].

لذلك أجمع العلماء – سلفاً وخلفاً – على أن السنة هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم ، كما أجمعوا كذلك على أنها تأتي في المرتبة الثانية لتفسير القرآن بعد كتاب الله تعالى ، وفي ذلك يقول العلامة الزركشي رحمه الله : (أحسن طريق التفسير أن يُفَسَّرَ القرآن بالقرآن ، فما أُجْمِلَ في مكان فقد فُصِّل في موضع آخر ، وما اختصر في مكان فإنه قد بُسِطَ في آخر ، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة ، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ، قال تعالى : (وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[3] ، ولهذا قال ﷺ : (ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه)[4] ، يعني السنة[5].

* فعلى طالب التفسير أن يطلبه بعد القرآن مباشرة من

---

(١) إرشاد الفحول ، للشوكاني ، صفحة ٢٩.

(٢) المرجع السابق ، صفحة ٣٣.

(٣) الآية ٦٤ من سورة النحل.

(٤) بعض حديث سيأتي ذكره وتخريجه قريباً.

(٥) البرهان في علوم القرآن ٢ / ١٧٥ ، ١٧٦.

السنة النبوية ، لأنها الشارحة لكتاب الله تعالى ، فهي التي تبين ما أجمله ، وتوضح ما أشكله ، وتخصص ما عممه ، وتقيد ما أطلقه ، وتشرح ألفاظه ، وتؤكد أحكامه[1] ، مع أنها تدور في فلك الكتاب ولا تخرج عنه.

* وإنما أوجب العلماء الأخذ بتفسير السنة بعد القرآن مباشرة.

لأن أفضل مَن يمكن أن يفسر القرآن مَن تكون أهم وظائفه تبيان القرآن الكريم ، وقد صَرَّحَ الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز بأن من أهم الوظائف التي بُعِثَ لها النبي ﷺ تبيان القرآن للناس ، فقال تعالى : (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)[2] ، وقد سبق – منذ قريب – قوله تعالى : (وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ

---

(١) فمن الأول : بيانه ﷺ لمواقيت الصلاة ، وعدد ركعاتها ، وكيفيتها ، وبيانه لمقادير الزكاة وأنواعها ، ومن الثاني : تفسيره ﷺ للخيط الأبيض والخيط الأسود بأنه بياض النهار وسواد الليل ، ومن الثالث : تخصيصه ﷺ الظلم في قوله تعالى (الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَ م مُّهْتَدُونَ) – الأنعام / ٨٢ – بالشرك ومن الرابع : تقييده ﷺ اليد في قوله تعالى : (فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا)– المائدة / ٣٨ –باليمين ، ومن الخامس : تفسيره ﷺ : (المَغْضُوبِ عَلَيهِمْ) باليهود ، و(الضالين) بالنصارى ، ومن السادس : قوله ﷺ : اتقوا الله في النساء فإنهن عوان في أيديكم ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فإنه موافق لقوله تعالى : (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) النساء / ٢٩.

وقد تأتي السنة بأحكام زائدة على ما جاء في القرآن ، كتحريم الجمع بين المرأة وعمتها ، ورجم الزاني المحصن ، وميراث الجدة ، وغيره كثير ... راجع : التفسير والمفسرون ، للذهبي ، ١ / ٦٠ وما بعدها.

(٢) آخر الآية ٤٤ من سورة النحل.

الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ ....) ، وقد كُلِّفنا نحن أن نأخذ بهذا البيان ، تحقيقاً لقوله تعالى:(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا...) [1].

وفوق ذلك فإن السنة النبوية ما هي إلا وحي أوحاه الله تعالى إلى نبيه ، مصداقا لقوله تعالى :(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [2]

* **وخلاصة القول** : إن السنة النبوية تُعتبر المذكرة التفسيرية للقرآن الكريم وهي المعين الذي لا ينضب ، والكنز الذي لا ينفد ، وإن البيان النبوي يدور أبداً في فلك الكتاب العزيز لا يتخطاه ..

▪ وبذلك تُقطع الحجة على كل جاهل أو متنطع في الدين ، يريد أن يأخذ بالقرآن وحده ، ويترك السنة ، فإنهما صنوان لا يفترقان.

▪ إننا – وللأسف الشديد – نسمع اليوم ونشاهد ما أثاره الأعداء من الشبهات الكلية والجزئية حول السنة النبوية المطهرة ، وكذلك نجد من بين صفوف المسلمين بعض المتنطعين ، الذين اختلط عليهم فهم الإسلام ، فراحوا يتخبطون في ظلمات الجهل ودروب التيه ، يتنكرون لسنة النبي ﷺ ، مُحتَجِّين – على جهلهم هذا – بما في كتاب الله تعالى ، مُدَّعِين أنهم قد أوتوامن العلم والفهم ما لم يؤت غيرهم ، فيقولون : بيننا وبينكم كتاب الله تعالى ، لا نزيد عليه ولا ننقص.

بل ويزيدون أمرهم سوءاً بطعنهم في سنة الحبيب ﷺ ، وفي علماء الحديث وفي كتب

---

(١) من الآية ٧ من سورة الحشر.

(٢) الآيتان ٣ ، ٤ من سورة النجم.

الصحاح وغيرها من مصادر السنة المعتمدة.

* وهذه الجهود المبذولة – من المبشرين والمستشرقين وأذنابهم – من أجل الإساءة إلى السنة ورفضها ، إنما هي جهود مركزة لهدم الإسلام كله ، ولا نملك هنا إلا أن نحوقل ونسترجع[1].

▪ ولقد تنبأ الرسول ﷺ في حديثه الشريف بهذا الصنف الزائغ عن الحق ، المتبع لهواه ، المنكر لسنة النبي ﷺ في كل عصر ومن كل جيل ، فقال ﷺ فيما رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجة من حديث أبي رافع ، أن رسول الله ﷺ قال : (لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته ، يأتيه الأمر مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول : لا أدري. ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه) [2].

كما أخرج الثلاثة أيضاً من حديث المقدام بن مَعْدِ يكَربَ الكِنْدِيِّ ، أن رسول الله ﷺ قال : (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ، لا يوشك رجل شبعان على

---

(١) الحوقلة : لا حول ولا قوة إلا بالله ، والاسترجاع : إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب العلم ، باب ما نهى عنه أنه يقال عند حديث رسول الله ﷺ ، برقم ٢٦٧٢ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، سننه ٤ / ٣٠٢. وأخرجه أبو داود في كتاب السنة ، باب في لزوم السنة ، برقم ٤٦٠٥ ، سننه٤/١٩٩. وأخرجه ابن ماجه في المقدمة ، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ ، برقم ١٣ ، سننه ١ / ٧. وقوله ﷺ : (لا ألفين) صيغة متكلم مؤكدة بالنون الثقيلة ، من ألفيت الشيء بمعنى وجدته ، وقوله ﷺ : (متكئا على أريكته) معناه : جالساً على سريره المزين.
ومراد الحديث النهي عن تلك الحالة ، والله أعلم.

أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه) [١].

وفي رواية الترمذي وابن ماجة : (.... فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وإن ما حرم رسول الله - ﷺ - مثل ما حرم الله) [٢].

* فيا ليت هؤلاء فقهوا كتاب الله تعالى وتأدبوا بآدابه ، فلو أحسنوا الفقه لعلموا أنه ﷺ لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، وأنهم قد أُمِروا - بنص القرآن - أن يأخذوا ما جاءهم به النبي ﷺ ، مصداقاً لقوله تعالى : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) [٣].

على أن الأخذ بما جاء به النبي ﷺ ليس اختياراً ، وإنما هو من مقتضيات الإيمان ، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً) [٤].

وليعلم هؤلاء جميعاً أن من فضل الله على هذه الأمة أن قيض لسنة نبيه ﷺ رجالاً قدموا لها من الجهود ما تنوء بحمله الجبال

---

(١) أخرجه أبو داود في الموضع السابق ، برقم ٤٦٠٤ ، سننه ٤ / ١٩٩.

(٢) أخرجه الترمذي في الموضع السابق ، برقم ٢٦٧٣ ، وقال : هذا حديث حسن ، سننه ٤ / ٣٠٢.
وأخرجه ابن ماجة في الموضع السابق ، برقم ١٢ ، سننه ١/ ٦ .

(٣) من الآية ٧ من سورة الحشر.

(٤)الآية ٦٥ من سورة النساء.

، حتى أوصلوها إلينا صافية نقية صحيحة كما تلفظ بها رسول الله ﷺ ، وعلم مصطلح الحديث وكتب الجرح والتعديل من أكبر الشواهد على ذلك.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا طاعة نبيه ﷺ ، واتباع سنته ، والاهتداء بهديه ، وامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، إنه سميع قريب مجيب الدعاء .....

الدرس الثاني : قداسة الدين والعقيدة فوق كل قداسة.

لقد ألمحت الآيات في عرضها لحادث أصحاب الأخدود إلى عظمة العقيدة التي تعالت على فتنة الناس مع شدتها ، وانتصرت على النار مع ذات وقودها ، وعلى جبروت الجبابرة الطغاة مع قسوتهم واستبدادهم ، بل على الحياة ذاتها وما فيها من مغريات وزخارف.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله:

(تنتهي رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة ، روعة الإيمان المستعلي على الفتنة ، والعقيدة المنتصرة على الحياة ، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم[١] وجاذبية الأرض.

فقد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم ، ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر ؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير : معنى زهادة الحياة بلا عقيدة ، وبشاعتها بلا حرية ، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد !

إنه معنى كريم جداً ومعنى كبير جداً هذا الذي ربحوه وهم

---

(١) لعله أراد شهوات الإنسان الجسمانية ، أفاده الصحاح ٢ / ١١٨٦ ، لسان العرب ١٠ / ٣٨٥ ،مادة وهق.

بعد في الأرض. ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم ، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار.

وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب ، ولأعدائهم الطاغين حساب ، يعقب به السياق ... (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۞ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ) [١].

إن الذي حدث في الأرض وفي الحياة الدنيا ليس خاتمة الحوادث ، وليس نهاية المطاف ، فالبقية آتية هناك ، والجزاء الذي يضع الأمر في نصابه ، ويفصل فيما كان بين المؤمنين والطاغين آت.

وهو مقرر مؤكد وواقع كما يقول عنه الله تعالى[٢].

لقد أثبت هؤلاء الشهداء - من المؤمنين والمؤمنات - للناس جميعاً في كل زمان ومكان أنه لا قيمة للنفس أو الأهل أو المال أو الجاه أو الأرض .لا قيمة لهذا كله ولا لغيره إذا كانت العقيدة وشعائر الدين مهددة بالزوال.

وهذا ما أكده القرآن الكريم لأتباعه في غير موضع ، منها قوله عز وجل في هذا المعنى : (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) [٣].

لذلك فرض الله عز وجل على عباده أن يضحوا بكل ذلك- إذا

(١) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة البروج.

(٢) في ظلال القرآن ٦ / ٣٨٧٤.

(٣) الآية ٢٤ من سورة التوبة.

اقتضى الأمر- في سبيل العقيدة والإيمان ، وإلا فلا يلومون إلا أنفسهم ، وهذا ما سيتضح - إن شاء الله - في الدرس التالي.

الدرس الثالث : التضحية في سبيل الله.

إن في حادث أصحاب الأخدود درساً عظيماً في التضحية في سبيل الدين والعقيدة والإيمان ، فقد كانت تضحية الغلام لنشر الدعوة دليلاً على عمق إيمانه وفهمه لرسالته ، فآثر أن يموت ويدخل الناس في دين الله أفواجاً.

وهؤلاء الذين قتلوا في سبيل الله وألقوا في اللهيب المستعر ، وقد وقفوا وجهاً لوجه أمام النار المتأججة والطغاة الجبابرة ، وهم يعلمون النتيجة الحتمية ، وهي الموت المحقق ، ومع ذلك لم يثنهم هذا الموقف الرهيب عمَّا اعتقدوه وآمنوا به ، بل ضحوا بكل شيء - حتى أنفسهم - ابتغاء مرضاة الله ، وطمعاً في مغفرته ورحمته.

فأي شيء أدل على التضحية من أجل الدين والإيمان والعقيدة من أن ترى أناساً قد عاينوا ناراً متأججة عظيمة ، وعاينوا مَنْ يلقى أمامهم فيها ، لأجل ثباتهم على ما هم ثابتون عليه ، ثم لا يهزهم هذا الموقف الرهيب ، ولا يزلزل إيمانهم ، بل ظلوا مستمسكين بعقيدتهم وإيمانهم إلى أن ألقاهم الطغاة في النار.

إنه لدرس جليل ما أعظمه ، يُقَوِّي النفس ، ويربي فيها الجرأة والشجاعة ، وحب التضحية في سبيل الله تعالى ، ويصهر في النفس مواطن التردد والخوف والوهن ، فيحيا الإنسان عزيزاً كريماً كما أراده الله تعالى.

* ألا ما أحوجنا - نحن المسلمين - أن نعي هذا الدرس

العظيم ، ونفقهه جيداً في واقعنا المعاصر.

فإنه لا سبيل إلى العزة والكرامة والسعادة في الدنيا والآخرة إلا بالتضحية في سبيل الله ، فهي سبب عز المسلمين وسعادتهم ، وبها يُصان الدين والوطن والدماء والأموال والأعراض ، وبها أيضاً يُصان الحق والعدل في الأرض.

ويوم أن ترك المسلمون التضحية وكرهوها ، وأخلدوا إلى الراحة والكسل وتعلقوا بالدنيا والشهوات. صاروا أذلة بعد عز ، لا قيمة لهم بين أمم الأرض ، مع كثرتهم العددية ، وامتلاكهم الأموال التي لا تعد ولا تحصى.

فدماؤهم مراقة ، وأعراضهم منتهكة ، وأموالهم مسلوبة ومسروقة ، وأطفالهم مشردون ، وأوطانهم مهددة بالضياع ، وأصبحوا أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام ، وتحقق فيهم وصف النبي ﷺ إنهم غثاء كغثاء السيل وذلك حين قال الرسول الكريم ﷺ : (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها). فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال-ﷺ- (بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال - ﷺ -حب الدنيا وكراهية الموت)[1].

* وهذا ما آل إليه حالنا ، فلم لا نضحي وحال أمتنا الإسلامية - الضائعة بين أمم الأرض ،

---

(١) أخرجه أبو داود - من حديث ثوبان - في كتاب الملاحم ، باب في تداعي الأمم على الإسلام ، برقم ٤٢٩٧ ، سننه ٤ / ١٠٨.

المغلوبة على أمرها ، المسلوب كافة حقوقها - يوجب علينا التضحية بكل ما نستطيع.

إن على كل مسلم أن يسأل نفسه : ماذا قدم لدينه ولإخوانه في شتى بقاع الأرض ، فإن لم يرض قلبه عن إجابته فليجدد عهده مع الله تعالى.

ولم لا يضحي المسلم وهو يرى حض القرآن في كثير من آياته وحثه على التضحية والترغيب فيها ، ويقرأ في غير موضع وعد الله تبارك وتعالى للمخلصين الباذلين أنفسهم وأموالهم لله بخيري الدنيا والآخرة ، يقول الله تعالى : (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)[1].

ويقول الله تعالى : (إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[2].

* ربح البيع ورب الكعبة ! أنفس لله هو خالقها ، وأموال هو رازقها ، ثم هو يعطي عليها الجنة. حقاً إن هذا لهو الفوز العظيم.

* ولقد وعى السابقون هذا الدرس فضحوا بأعز ما يملكون

---

(١) الآيات ١٦٩ : ١٧١ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ١١١ من سورة التوبة.

فانتصروا على أعدائهم ، ونالوا رضوان الله تعالى وجنته.

وإن حياة السلف الصالح - وعلى رأسهم الأنبياء عليهم السلام - ما هي إلا سلسلة من التضحيات بكل غال ونفيس ، من أجل نصرة الدين والعقيدة.

فلقد علّمَ الأنبياء أتباعهم أن رضا الله تعالى هو الفوز الحقيقي ، وأن ثوابه خير وأبقى ، وتلك هي الغاية العظمى التي يجب عليهم أن يتوصلوا إليها ، ويتحصلوا عليها.

وفقه الأتباع ذلك ، وآمنوا به إيماناً صادقاً ، دفعهم إلى بذل النفس والمال والوقت والراحة والحياة وكل شيء في سبيل الوصول إلى أعظم غاية ..

فها هو سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يضرب لنا أروع الأمثلة في التضحية بكل غالٍ ونفيس ، فهو الذي ضحى بنفسه لنصرة الدين حين أراد به قومه كيدا فالقوه في الجحيم ، وضحى بزوجه وولده الرضيع ، حين تركهما بوادٍ غير ذي زرع امتثالاً لأمر الله تعالى ، ولم تكن هذه نهاية التضحية من أبي الأنبياء - عليه السلام - بل نراه في أعلى درجات التضحية وهو يضحي بولده وبكره ووحيده ، وذلك حين أمر بذبحه في المنام ، إيثاراً لرضا مولاه ، فقدّم ابنه لله تبارك وتعالى بعدما بلغ معه السعي.

وها هم سحرة فرعون يضربون لنا مثلاً سامياً في التضحية من أجل العقيدة والإيمان ، إيثاراً لرضوان الله ومغفرته ، وذلك حين خالط الإيمان قلوبهم ، فدفعهم إلى أن يضحوا بحياتهم في سبيل الوصول إلى الغاية العظمى ، كما دفعهم إلى الاستهانة بكل عذاب يحل بهم ، وبأي تنكيل يقع عليهم ، لقد

دفعهم هذا الإيمان الصادق أن يقفوا في وجه الطاغية فرعون ، الذي توعدهم بالعذاب وهددهم بقطع الأيدي والأرجل وصلبهم في جذوع النخل ، دفعهم هذه الإيمان أن يقولوا لفرعون في جرأة وشجاعة : (لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۞ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۞ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ۞ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى) [1].

قالوا ذلك وهم الذين جاءوا في أول النهار لطلب الأجر ، وأقسموا بعزة فرعون إنهم لهم الغالبون.

* وذلك شأن القلب السليم إذا عمر بالإيمان الصحيح ، فإنه يتعالى على الدنيا وما فيها من أهواء.

فالإيمان الصادق حين تخالط بشاشته القلوب يسمو بصاحبه فوق عالم الماديات ، بل فوق الدنيا وما فيها ، وإلا فهو إيمان ناقص مبتور ، على صاحبه أن يراجع إيمانه ، وأن يجدد عهده مع ربه ، وإلا فلا يلومن إلا نفسه.

* وهذا رسول الله ﷺ وخاتم الأنبياء والمرسلين يضحي بكل غال ونفيس في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، ونصرة لدينه الحنيف ، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى.

وهؤلاء هم صحابة النبي ﷺ الأطهار يضربون لنا كذلك أروع

---

(١) الآيات ٧٢ : ٧٦ من سورة طه.

الأمثلة في التضحية من أجل الدين والعقيدة ، هذه التضحية هي التي جعلتهم يتركون أموالهم وأهليهم وأوطانهم ابتغاء مرضاة الله وجنته ، هذه التضحية هي التي جعلتهم يقدمون على الموت وكأنهم يقدمون على عزيز غائب يتمنون لقاءه ورؤيته ، هذه التضحية هي التي جعلت الواحد منهم إذا قتل في سبيل الله ينادي بأعلى صوته:فزت ورب الكعبة [1]

وبسبب هذه التضحيات صنعوا العجائب ، ودانت لهم الأرض ، وحكّموا شرع الله تعالى بين العباد وأخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن ظلم الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

ورحم الله شاعر الإسلام محمد إقبال ، فقد قال متحدثاً عن طرف من هذه التضحيات :

من ذا الذي رفع السيوف
ليرفع اسمك فوق هامات النجوم
منارا كنا جبالاً في الجبال
وربما سرنا على موج البحار
بحاراً بمعابد الإفرنج
كان أذاننا قبل
الكتائب يفتح الأمصارا
لم تنس إفريقيا ولا صحراؤها
سجداتنا والأرض تقذف نارا
كنا نقدم للسيوف
صدورنا لم نخش يوماً
غاشماً جبارا وكأن ظل
السيف ظل حديقة خضراء تنبت
حولها الأزهارا لم نخش
طاغوتاً يحاربنا ولو نصب
المنايا فوقنا أسوارا
كنا نرى الأصنام من ذهب

(١)راجع صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الرجيع ، حديث رقم ٤٠٩١
وما بعده ، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٧ / ٤٤٥ ، ٤٤٦.

فنكسرها ونكسر فوقها الكفارا
ندعو جهاراً لا إله سوى الذي
صنع الوجود وقدر
الأقدارا ورؤوسنا يا رب
فوق أكفنا نرجو ثوابك
مغنماً وجوارا .

*هكذا كانوا رضي الله عنهم ، وهكذا ينبغي أن نكون ، فحالنا لن ينصلح إلا بالسير على هدى سلفنا الصالح في التضحية وبذل كل شيء في سبيل الله

إن التضحية اليوم أصبحت ضرورة ملحة ، لأن الديار لن تعود ، والدماء لن تحقن ، والأعراض لن تحمى ، والأموال لن تسترد. إلا برجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وحملوا أرواحهم على أكفهم ، وهانت عليهم الدنيا ، وآثروا ما عند الله تعالى على ما في أيديهم ....

أيها المسلمون : إن القرآن يناديكم ويهتف بكم : (وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۞ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ۞ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) [1].

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)[2].

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل ، وأن يرزقنا الشهادة في سبيله مقبلين غير مدبرين ، والحمد لله رب العالمين.

(١) الآيات ١٣٩ : ١٤٢ من سورة آل عمران.
(٢) آخر الآية ٢١ من سورة يوسف.

الدرس الرابع : ملازمة البلاء للدعوات الصادقة ، والصبر عليه.

في قول الراهب للغلام :(وإنك ستبتلى،فإن ابتليت فلا تدل علي).

إشارة صريحة – من الأستاذ لتلميذه– إلى ملازمة البلاء للدعوات الصادقة لأن الابتلاء سنة كونية من سنن الله تعالى ، وهو أمارة على حب الله للمبتلى ، فإن الله تعالى إذا أحب عبداً ابتلاه،ويبتلى المرء على قدر دينه.

* وهذا القول من الراهب يحتمل أن يكون منه بطريق الكشف فيكون كرامة ، أو بطريق الفراسة ، أو بطريق العادة والتجربة ، إذ مَن خالف الناس في منهجهم ابتلوه وآذوه.

وقد أورد الأول – وإنك ستبتلى – بصيغة الجزم والتأكيد والتحقيق والوقوع ، لأن ذلك بحسب ما قام عنده مما يقتضي وقوع ذلك.

وأورد الثاني – فإن ابتليت – بصيغة الشك ، لاعتبار الواقع وما يبرز في عالم الشهادة ، فإن الكشف قد يُعارض ، والفراسة قد تخطئ ، والتجربة قد تتخلف ، أو لعله قصد بالثاني التخفيف عن الغلام ، فلا يخاطبه بجملتين تدلان يقيناً على الابتلاء ، لئلا يصير في الكرب قبل حلول البلاء[1].

* وهذا يرشدنا إلى درس هام جداً ، ينبغي علينا فقهه جيداً ، وهو أنه لا يوجد حق بغير بلاء ، وإنما لازم البلاء الحق لأن تكاليف الحق ثقيلة ، وطعمه مر ، وطريقه وعرة شاقة متعبة ، محفوفة بالمكاره ، مليئة بالأشواك المؤذية ، قد غرست فيها الصخور الحادة ..

هكذا طريق الدعوات الصادقة ، ليس مُعَبَّداً ، ولا مفروشا بالطنافس ، ولا مكتنفاً بالورود والرياحين ، بل على العكس ، إنه

(١)دليل الفالحين ١/١٥٦،١٥٥ بتصرف.

طريق الجهاد ، واحتمال الأسى والتعب ....

لذلك كان الابتلاء ضرورة لأصحاب الحق ، ليميز الله الخبيث من الطيب ويبتليهم الله بالمحن ليزكي نفوسهم ، ويطهر أفئدتهم ، وهل يُزكَّي الذهب إلا بالنار؟

وكذلك النفوس المؤمنة. لا تُزكَّى إلا بالمحن والشدائد.

وليس ذلك سراً يخفيه الإسلام عن أتباعه ، ولكن كثرت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تبين وعورة الطريق ، وملازمة البلاء لأصحاب الدعوات الصادقة ، والحث على التحلي بالصبر على البلاء ، وصدق الله العظيم القائل : (الم ۞ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)[1].

(١) أول سورة العنكبوت.

ويقول تعالى : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)[2].

ويقول تعالى : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)[3].

ويقول تعالى : (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)[4].

ويقول تعالى : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)[5].

(٢) الآية ٢١٤ من سورة البقرة.
(٣) الآية ١٤٢ من سورة آل عمران.
(٤) الآية ١١٠ من سورة النحل.
(٥) الآية ١٥٥ من سورة البقرة.

ويقول تعالى : (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) [١].

إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على وعورة الطريق.

* ثم هناك القصص القرآني الذي سجل لنا بوضوح ما تعرض له أصحاب الدعوات الصادقة السابقة من أنواع البلاء وصنوف المحن.

* وكما وضح القرآن ذلك وضحته السنة أيضاً.

فلم يأل النبي ﷺ جهداً بتوضيح وعورة الطريق لأتباعه منذ الأيام الأولى للدعوة الإسلامية ، وهو ﷺ القائل في الحديث المتفق عليه :

(حفت الجنة بالمكاره. وحفت النار بالشهوات) [٢] ،

وفي رواية (حجبت النار بالشهوات. وحجبت الجنة بالمكاره) [٣].

قال العلماء : هذا من بديع الكلام وفصيحه وجوامعه التي أوتيها ﷺ من التمثيل الحسن ، ومعناه : لا يوصل إلى الجنة إلا بارتكاب المكاره والمشقات ، ولا إلى النار إلا بتعاطي الشهوات ، وكذلك هما محجوبتان بهما ، فمن هتك الحجاب وصل إلى المحجوب ، فهتك حجاب الجنة باقتحام المكاره ، وهتك حجاب النار بارتكاب الشهوات[٤].

---

(١) الآية ١٨٦ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب وباب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، برقم ٢٨٢٢ ، صحيح مسلم بشرح النووي ٩ / ١٨١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب حجبت النار بالشهوات ، برقم ٦٤٨٧ ، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ١١ / ٣٢٧.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ٩ / ١٨٢.

* وكذلك نراه ﷺ يؤكد على وعورة الطريق حينما جاءه الصحابي الجليل خباب بن الأرت رضي الله عنه يشتكي إليه تعذيب المشركين،ويطلب منه الدعاء بالنصر .

أخرج البخاري رضي الله عنه عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول ﷺ وهو مُتوسِّدٌ بُردةً له في ظل الكعبة فقلنا ، ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو لنا ؟ فقال - ﷺ - : (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ويُمَشَّط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه ، فما يَصُدّه ذلك عن دينه ، والله ليتمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكبُ من صنعاء إلى حَضْرَمَوتَ لا يخافُ إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون) [١].

* لقد كان الرسول ﷺ بلا شك يرى آثار التعذيب على خباب ، وكان بإمكانه الدعاء له فيزيل الله عنه وصحبه ذلك البلاء ، ولكنه ﷺ أراد أن يغرس في نفوس أصحابه طبيعة الطريق ، وتكاليف النصر ، وعِظم الأمانة التي عجزت عن حملها السماوات والأرض والجبال ، فأنّى لإنسان لا يتحمل البلاء والإيذاء في سبيل الله أن يتحملها ، ولو أنه حملها وأعطيت له وهو ضعيف لم يتمحص بالبلاء والفتن ، ولم يثبت. فإنه سيضيعها ، ويسئ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإكراه ، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ، برقم ٦٩٤٣ ، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ١٢ / ٣٣٠.

إليها ، والله عز وجل لا يريد أن تضيع الأمانة على أيدي الضعفاء.

لذلك جاء في رواية أخرى[1] توضيح غضب الرسول ﷺ من سؤال خباب لعدم معرفته الحكمة وراء الإبتلاء ، يقول خباب : (فقلت يا رسول الله ألا تدعو لنا ؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال : (لقد كان من قبلكم ....الحديث.

فهو يريد أن يبين لهم أنه ما من نصر لأصحاب الحق إلا ويسبقه بلاء ، فيسوق لهم أخبار الأمم التي قد مضت ، وكيف واجهوا المحن بقلوب ثابتة ثم وضح لهم ﷺ أن النصر – والأمان المصاحب له – سيأتي لا محالة ، ولكن بعد أن يتجاوزوا ضريبة النصر من الابتلاء والتمحيص.

(١) أخرجها البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين ، برقم ٣٨٥٢ المرجع السابق ٧ / ٢٠٢.

* سأل رجل الشافعي فقال : يا أبا عبد الله. أيهما أفضل للرجل. أن يُمكَّن أو يُبْتَلى ؟ فقال الشافعي رضي الله عنه :

(لا يُمكَّن حتى يُبْتَلى ، فإن الله ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله عليهم أجمعين ، فلما صبروا مَكَّنَهُم ، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة)[2].

* ولملازمة البلاء للدعوات الصادقة. نراه يتفاوت من داعية لآخر ، فيبتلى المرء على قدر دينه ، لذلك كان الأنبياء هم أشد الناس بلاء ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم.

وإن المتتبع لسير الأنبياء – عليهم السلام – ليدرك أن الابتلاء والمحن والأذى جزء من طريق الدعوات ، يمحص الله به عباده ويرفعهم به درجات.

(٢) الفوائد – لابن القيم – صفحة ٢٨٣.

وقد ورد ذلك على لسان الرسول الكريم ﷺ ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله : أي الناس أشد بلاءً؟ قال :

(الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، فيبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه)[1].

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد ، باب ما جاء في الصبر على البلاء ، برقم ٢٤٠٦ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح،سننه ٤ / ١٧٩،وأخرجه ابن ماجة- عن سعد بن أبي وقاص- في كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء ، برقم ٤ ، سننه ٢ / ١٣٣٤ ، وأخرجه – بنحوه – الحاكم في كتاب الرقاق ، برقم ٧٨٤٨ ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي في التلخيص ، المستدرك٤/٣٤٢.

* ولتفاوت البلاء من داعية لآخر ، كان الجزاء على البلاء أيضاً متفاوتاً ، فعن أنس رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ:

(إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط)[2].

وفي رواية ابن ماجة عن أبي سعيد : أشد الناس بلاء الأنبياء. قلت يا رسول الله ثم من قال : الصالحون ... إلخ ، وأخرجه الحاكم في كتاب معرفة الصحابة ، برقم ٥٤٦٣ بلفظ : (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم العلماء ثم الأمثل فالأمثل ....) المستدرك ٣ /٣٨٦.

وقد بَوَّبَ البخاري الباب الثالث من كتاب المرضى بعنوان :

(أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل).

(٢) أخرجه الترمذي – وحَسَّنَهُ – في كتاب الزهد ، باب ما جاء في الصبر على البلاء

* فالابتلاء إذاً سنة كونية من سنن الله في خلقه ، لاسيما عباده الصالحين الذين رضوا به رباً وخالقاً ومعبوداً ، فإن الله تعالى يعرضهم للبلاء – وهو قليل – بجانب نعمه الكثيرة عليهم التي لا تعد ولا تحصى ، وذلك لاختبارهم ، أو لتزكية قلوبهم ، أو لرفع درجاتهم ، أو لتنبيههم فيما وقعوا فيه من الغفلة والتقصير ، أو لغير ذلك مما أراده الله تعالى.

* ولأن الابتلاء سنة كونية ، ولأن المحن تلازم الحق دائماً ، فلا بد أن يكون الصبر هو زاد الذين يسلكون طريق الحق ويدعون إليه ، ويبلغون به غايات الفوز والفلاح.

لذلك نلحظ اقتران الصبر بدعوة الحق في غير موضع من القرآن الكريم ، منها – على سبيل المثال لا الحصر – قوله تعالى : (وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) [1].

يقول الإمام الرازي رحمه الله في تفسير الآية الأخيرة من سورة العصر : (دلت الآية على أن الحق ثقيل ، وأن المحن تلازمه ، فلذلك قرن به التواصي بالصبر) أ. هـ[2].

ومنها ما حكاه القرآن الكريم على لسان لقمان لابنه وهو يعظه : (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) [3].

برقم ٢٤٠٤ ، سننه ٤ / ١٧٨، وأخرجه ابن ماجة في كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء ، برقم ٤٠٣١ ، سننه ٢ / ١٣٣٨.

(١) سورة العصر.

(٢) التفسير الكبير ٣٢ / ٨٥.

(٣) الآية ١٧ من سورة لقمان.

وكأنَّ البلاء مع دعوة الحق أمر طبعي ، فطالما تمسك بالحق ودعا إليه. فلا بد أن يتعرض للأذى والابتلاء والمحن ، فعليه أن يتحلى بالصبر في سبيل دعوة الحق.

ونلحظ ذلك أيضاً في الأوامر الإلهية التي صدرت إلى الرسول الكريم ﷺ في بداية الدعوة ، ومن أوائل ما نزل عليه من القرآن العظيم ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى مخاطباً رسوله ﷺ : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۞ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۞ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۞ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) [1].

لأنه ما دام على الحق ويدعو إليه. فعليه أن يوطن نفسه على البلاء والأذى لأن الناس سينالونه بأذاهم ، لم ينج أحد من هذا حتى الأنبياء.

ومن هنا جاءت الأوامر الشرعية بالصبر على البلاء ، لأنه لا يمكن أن تقوم دعوة للحق بغير بلاء ومحن ، وزاد الداعية الصادق في ذلك هو الصبر كما قلنا ...

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله في تفسير قوله تعالى: (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ): (... ويوجهه أخيراً إلى الصبر. الصبر لربه (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) ، وهي الوصية التي تتكرر عند كل تكليف بهذه الدعوة أو تثبيت والصبر هو الزاد الأصيل في هذه المعركة الشاقة. معركة الدعوة إلى الله. المعركة المزدوجة مع شهوات النفوس وأهواء القلوب ، ومع أعداء الدعوة الذين تقودهم شياطين الشهوات ، وتدفعهم شياطين الأهواء !

---

(١) أول سورة المدثر.

وهي معركة طويلة عنيفة ، لا زاد لها إلا الصبر ، الذي يقصد فيه وجه الله ، ويتجه به إليه احتساباً عنده وحده) أ. هـ[١].

وقال الإمام الغزالي رحمه الله: (أوصى بعض السلف بنيه فقال : إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف. فليوطن نفسه على الصبر ، وليثق بالثواب من الله ، فمن وثق بالثواب من الله لم يجد مس الأذى)أ. هـ[٢].

ولقد رأينا في حادث أصحاب الأخدود أروع الأمثلة في الصبر على البلاء بداية من الذين تحملوا نشر المنشار وصبروا عليه ، ومروراً بأولئك الذين صبروا على الإلقاء في النار ، ونهاية بمقولة الصبي الخالدة لأمه:يا أماه اصبري فإنك على الحق.

---

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٧٥٥.

(٢) إحياء علوم الدين ٢ / ٣٦٢.

* فإن قيل : أيهما أوسع للعبد. ساحة العافية أم ساحة الصبر ؟ قلنا : ساحة العافية أوسع للعبد من ساحة الصبر ، والنبي ﷺ يقول في الدعاء المشهور – الذي دعا به عند رجوعه من الطائف بعد إعراض أهلها عن دعوته – : (إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي) [٣].

ولا ينافي هذا قوله ﷺ : (إنه من يستعف يعفه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ولن تعطوا عطاء خيرا وأوسع من الصبر)[٤].

---

(٣) السيرة النبوية لابن هشام٢ / ٤٧.

(٤) بعض حديث متفق عليه ، أخرجه البخاري – واللفظ له – في كتاب الرقاق ، باب الصبر عن محارم الله ، برقم ٦٤٧٠ ، وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة ، باب فضل التعفف والصبر ، برقم ١٠٥٣.

فإن هذا بعد نزول البلاء ، أما قبل نزوله فميدان العافية أوسع الميادين ، ولا ينبغي لأحد أن يتمنى البلاء ويطلبه من الله عز وجل ، بل يطلب العفو والعافية في الدنيا والآخرة ، أما بعد حلول البلاء فساحة الصبر أوسع الساحات.

* وإن قيل : هل الشكوى تنافي الصبر ؟

قلنا : الشكوى نوعان.

أحدهما : الشكوى إلى الله تعالى ، وهي لا تنافي الصبر.

فهذا يعقوب – عليه السلام – يقول : (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)[١].

مع قوله قبل ذلك : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)[٢].

صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ١١ / ٣٠٩ ، صحيح مسلم بشرح النووي٤/١٥٦.

(١) من الآية ٨٦ من سورة يوسف.

(٢) من الآية ٨٣ من سورة يوسف.

وهذا أيوب – عليه السلام – يقول : (أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)[٣] ، مع قوله تعالى عنه : (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)[٤].

وهذا سيد الصابرين ﷺ يقول في دعائه السابق منذ قليل : (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس،يا أرحم الراحمين..).

وفي الدعاء المأثور عن موسى – عليه السلام – : (اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث ، وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بك).

والنوع الثاني : الشكوى إلى الخلق[٥] ، وهذه بلا شك تنافي الصبر وتضاده.

---

(٣) آخر الآية ٨٣ من سورة الأنبياء.

(٤) آخر الآية ٤٤ من سورة ص.

(٥) سواء أكان بلسان الحال أو بلسان المقال.

وقد سمع أحد الصالحين رجلاً يشتكي إلى أخيه ، فقال له : يا هذا. والله ما زدت على أن شكوت مَنْ يرحمك إلى مَنْ لا يرحمك ، وفي هذا قيل :

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكي الرحيم إلى الذي لا يرحم[1].

نسأل الله سبحانه وتعالى العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة ، وأن يرزقنا من اليقين ما يهون به علينا مصائب الدنيا ، وأن يرزقنا الصبر على البلاء ، وأن يجعلنا من عباده الصابرين الشاكرين.

إنه عفو غفور رحيم.

الدرس الخامس : دوام الصراع بين الحق والباطل.

الحق والباطل – كالخير والشر والهدى والضلال – صفحتان متقابلتان ، وطريقان مفترقان ، وضدان لا يجتمعان أبداً ، والصراع بينهما قائم منذ أن خلق الله الإنسان ، وسيستمر إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها ، وتلك سنة من سنن الله الجارية في هذا الكون الفسيح.

وحادث أصحاب الأخدود من أهم الأحداث التي تصور الصراع بين الحق والباطل ، بل وتبين قضية الصراع الأساسية ، وهي الإيمان والعقيدة.

فما كان من سبب لهذا الصراع إلا هذا الإيمان الراسخ ، الذي زلزل سلطان الباطل ، وصدق الله العظيم : (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)[2].

إن هذا الملك الغاشم ، الذي كان على الباطل وادعى الربوبية

(١) راجع : إحياء علوم الدين ٤ / ٦٣ وما بعدها ، عِدَّة الصابرين لابن القيم صفحة ١٥ وما بعدها.

(٢) الآية ٨ من سورة البروج.

، ما كان ليترك أهل الإيمان على حقهم الذي أعلنوه بقولهم (ربي وربك الله). ويغضب الباطل. لأن الحق أعلن عن نفسه في أخطر مجلس ، وأمام الطاغية المتأله ، ويثور الباطل ، ويقسو في الانتقام ، ويأبى الحق أن يتخلى عن نفسه.

فبثقة المؤمن – صاحب الحق – الذي وضع في مواجهة الباطل يأبى جليس الملك أن يتخلى عن الحق الذي معه مهما كان الثمن ، كما يأبى ذلك الراهب والغلام ، ويأبى من بعدهم فريق المؤمنين – أصحاب الحق – وإن كلفهم ذلك حياتهم أجمعين.

وينتصر الحق. المتمثل في الإيمان الراسخ والعقيدة الواثقة والإرادة المستعلية ، على الباطل. المتمثل في القوة المادية والكثرة العددية وطغيان الجبابرة.

• إن من الواجب علينا أن نعي هذا الدرس جيداً ، وأن نفهم طبيعة المعركة والصراع بين الحق والباطل.

إن الباطل لا يُعَادِي الحق إلا لقضية واحدة ، هي قضية العقيدة والإيمان كما قلنا منذ قليل. هذه هي الحقيقة ، وإن تستر الباطل في معركته مع الحق وراء رايات أخرى وقضايا مختلفة : سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو عنصرية أو .... أو .... إلخ.

• ولقد اقتضت حكمة الله تعالى أن ينتفش الباطل في غيبة الحق ، وهذا الباطل المنتفش في غيبة الحق لا أصالة له ، لأنه باطل ، ومع ذلك يُمكَّن له في الأرض فترة من الوقت ، وقد يجمح الباطل ويتسلح ويبطش ويضرب ويفتن الناس عن الحق والخير والهدى ، وهذا كله لحكمة يريدها الله سبحانه وتعالى وسنة يجريها.

فالله عز وجل قادر على قلب الموازين لصالح الحق وأهله ودحر الباطل ، ولكنه تعالى أراد غير ذلك ، كما بين القرآن الكريم : (وَلَوْ) [١] ، وقوله تعالى : (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) [٢].

ولا بقاء للباطل أمام الحق إلا بالتستر بالقوة ، والتحكم بالظلم والطغيان.

ولكن هذا الباطل لا يتم تدميره إلا إذا استيقظ أهل الحق ، وعملوا على تدمير الباطل ، فلا يقعد أهل الحق كسالى يرتقبون أن تجري سنة الله بلا عمل منهم ولا تعب ، فإنهم حينئذٍ لا يمثلون الحق وأهله ، وستتحقق سنة كونية أخرى ، أخبر عنها تبارك وتعالى بقوله لعباده : (وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) [٣].

* ومما يلفت النظر ويستدعي الانتباه في هذا الصراع ، أن القرآن الكريم قد وضح لنا أن الصراع بين الحق والباطل وتدافع الخير مع الشر من أسباب المحافظة على الأرض وإنقاذها من الفساد ، وهو كذلك من أسباب إقامة الشعائر فيها ، وفي ذلك يقول الحق عز وجل :(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) [٤] ، ويقول تعالى : (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) [٥].

---

(١)الآية ٨١ من سورة الإسراء.

(٢) أول الآية ١٨ من سورة الأنبياء.

(٣) آخر سورة محمد.

(٤) آخر الآية ٢٥١ من سورة البقرة.

(٥) آخر الآية ٤٠ من سورة الحج.

* ومما يبشر بالخير في هذه المعركة أن الله عز وجل تكفل للحق وأهله بالنصر ، ما داموا عليه واستمسكوا به ، وهذا وعد من الله تبارك وتعالى – سجله القرآن الكريم في غير موضع – ولن يخلف الله وعده ،

يقول تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ...) [١].

ويقول تعالى : (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) [٢] ، ويقول تعالى : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) [٣] ، ويقول تعالى : (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) [٤] ، ويقول تعالى : (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) [٥].

* فالغلبة في النهاية للحق وأهله ، ودائماً كلمة الحق والخير والهدى والصلاح هي العليا ، وكلمة الباطل والشر والضلال والفساد هي السفلى ، والله عزيز حكيم ، قال تعالى : (كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ) [٦] ، ويقول تعالى :

---

(١) من الآية ٥٥ من سورة النور.

(٢) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء.

(٣) الآيات ١٧١ : ١٧٣ من سورة الصافات.

(٤) الآية ٥١ من سورة غافر.

(٥) الآية ٢١ من سورة المجادلة.

(٦) من الآية ١٧ من سورة الرعد.

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۞ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ۞ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)[1].

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من أهل الحق وجنده ، وأن ينصرنا على أعدائنا ، وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ،

إنه ولي ذلك والقادر عليه.

---

(١) الآيات ٢٤ : ٢٧ من سورة إبراهيم.

الدرس السادس : ثبوت الكرامات ووقوعها للأولياء.

إن في حادث أصحاب الأخدود إثبات كرامات الأولياء ، ووقوع التكريم من الله تعالى لأوليائه الصالحين ، وقد تجلى ذلك في أكثر من صورة ، منها ما أظهره الله تعالى على يد الغلام من أنه كان مستجاب الدعوة ، وأنه رمى الدابة بحجر فقتلها ، وأنه كان يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء ، وأن الله نجاه حين أمر الملك بقتله عن طريق إلقائه من فوق الجبل أو إغراقه في البحر، وكل هذه كرامات تدل على اتصال الغلام بمولاه.

وصورة هذا الطفل الرضيع الذي أنطقه الله في المهد ليُثَبِّت أمه بقوله : (اصبري فإنك على الحق). هي كرامة أخرى من الكرامات والخوارق.

* وهذا يرشدنا ويؤكد لنا أن الله تبارك وتعالى قد يَمُنّ على بعض الصالحين من عباده بكرامات وخوارق ، تدل على صلتهم بالله عز وجل ، ولكن الأمر يجب أن يقدر بقدره ، ويضبط بضوابطه الشرعية ، بلا إفراط ولا تفريط.

لأن الناس في الكرامات والخوارق مذاهب ثلاثة. طرفان ووسط.

قد غالى في أمرها الطرفان ، وخير الأمور الوسط.

فالطرف الأول يكذب بوجودها ، بل وينكرها إنكاراً شديداً ، كالخوارج والمعتزلة والقدرية.

والطرف الثاني على الضد من الطرف الأول. يثبتها في غير موضعها ، ولأي أحدٍ كان ، كبعض الصوفية الذين لا يفرقون بين الكرامات الإيمانية والخوارق الشيطانية ، فالجميع عندهم أولياء ، فأدى ذلك إلى خلل في العقيدة والإيمان ، والطرفان مزلقان خطيران في هذا الباب المهم ..

* وأما فريق الوسط فيمثله أهل السنة والجماعة ، وهم لا ينكرون على أهل الفضل والصلاح من عباد الله مكانتهم عند ربهم وهم أحياء ، لقوة صلتهم بربهم سبحانه وتعالى ، فيكرمهم الله بما يشاء.

فمن أصول أهل السنة والجماعة : التصديق بكرامات الأولياء ، وما يجري الله تعالى على أيديهم من خوارق العادات.

وهؤلاء مع قولهم بثبوت الكرامة إنما يؤكدون على أنها ثابتة بضوابطها الشرعية ، ومن شروطها وأسبابها الإيمان الصحيح الصادق والتقوى الحقيقية لله تعالى ، والمتابعة والموافقة لكل ما جاء به النبي

ﷺ ، مع اعتقادهم أن أصحاب الكرامات لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً في حياتهم أو بعد مماتهم ، فضلاً عن أن يهبوا شيئاً من ذلك لغيرهم.

■ أقول :

ومذهب أهل السنة والجماعة هو الصحيح ، الذي يتوافق مع الشرع والعقل. ذلك لأن وقوع الكرامة من قبيل الجائز عقلاً ، ودل على وقوعها

منطوق القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ وما ثبت من الآثار الصحيحة لبعض الصحابة والتابعين والسلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين ، ومنها ما يأتي :

أولاً : القرآن الكريم.

لقد أثبت الحق تبارك وتعالى الكرامة في القرآن الكريم ، وعرَّف فيه الولاية ، وذلك في قوله تعالى : (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[1].

فأولياء الله تعالى هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وهؤلاء لهم من الله البشرى في دنياهم وأخراهم ، كما تدل الآية الكريمة.

وقد أوضح القرآن الكريم وأخبر عن بعض مَن ظهرت على أيديهم هذه الكرامات ومنهم :

١ – السيدة مريم رضي الله عنها ، وما وقع لها في غير موضع ، يقول تعالى : (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ

---

(١) الآيات ٦٢ : ٦٤ من سورة يونس.

حِسَابٍ)[1] ويقول تعالى : (فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۞ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا)[2].

٢ – الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها ، قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه[3].

٣ – أصحاب الكهف الذين لبثوا أحياء في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً[4].

٤ – الخضر عليه السلام وما وقع منه من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار[5].

٥ – الرجل الصالح[6] الذي كان عنده علم من الكتاب ، وأحضر عرش بلقيس لسيدنا سليمان عليه السلام قبل ارتداد الطرف[7].

إلى غير ذلك من نصوص القرآن الكريم في هذا الشأن.

ثانياً : السنة النبوية المطهرة.

فكما أثبت القرآن الكرامة وعرَّف الولاية. كذلك فعلت السنة النبوية على صاحبها أفضل السلام وأتم التسليم.

أخرج البخاري رضي الله عنه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : إن الله – تعالى – قال : (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما

---

(١) آخر الآية ٣٧ من سورة آل عمران.

(٢) الآيتان ٢٤ : ٢٥ من سورة مريم.

(٣) راجع قصته في الآية ٢٥٩ من سورة البقرة.

(٤) راجع قصتهم في الآيات ٩ : ٢٦ من سورة الكهف.

(٥) راجع الآيات ٦٠ : ٨٢ من سورة الكهف.

(٦) قيل : كان اسمه آصف بن برخيا.

(٧) راجع الآيات ٣٨ : ٤٠ من سورة النمل.

افترضته عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه[١].

* ومما أخبرت به السنة من الكرامات الواقعة لبعض الصالحين ما يأتي :

١ – قصة الثلاثة أصحاب الغار ، الذين سَدَّت عليهم الصخرة باب الغار فتوسلوا إلى الله بصالح أعمالهم ، فأنجاهم الله تعالى[٢].

٢ – الذين تكلموا في المهد[٣].

٣ – أمر الله تعالى السحابة أن تسقي حديقة الرجل الصالح ، الذي كان يتصدق بثلث ما يخرج منها[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب التواضع ، حديث رقم ٦٥٠٢. صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ١١ / ٣٤٨.

(٢) في حديث متفق عليه ، أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب إجابة دعاء من بَرَّ والديه ، برقم ٥٩٧٤ ، وأخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء ، باب قصة أصحاب الغار ، برقم ٢٧٤٣ ، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ١٠ / ٤١٨ ، صحيح مسلم بشرح النووي ٩ / ٦٥.

(٣) في حديث متفق عليه ، أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله تعالى (واذكر في الكتاب مريم) ، برقم ٣٤٣٦ ، وأخرجه مسلم في كتاب البر والصلة ، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها ، برقم ٢٥٥٠ ، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٦ / ٥٤٩ ، صحيح مسلم بشرح النووي٨/٣٤٦.

(٤) في حديث أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقاق ، باب الصدقة في المساكين ، برقم ٢٩٨٤ ، صحيح مسلم بشرح النووي ٩ / ٣٤١.

٤ – خبيب بن عدي رضي الله عنه ، كان يأتيه الرزق وهو موثوق بالحديد

وذلك أن خبيباً أُسِرَ يوم الرجيع ، واشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل ليقتلوه بالحارث ، وكان خبيب قَتَل الحارث يوم بدر ، فمكث عندهم أسيراً وكانت بنت الحارث – وقد أسلمت – تقول : (ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب ، لقد رأيته يأكل من قِطفِ عنب وما بمكة يومئذٍ ثمرة ، وإنه لموثق بالحديد ، وما كان إلا رزق رزقه الله)[١].

٥ – عاصم بن ثابت رضي الله عنه. الذي حماه الله تعالى بالدَبْر[٢] لئلا يَنْتَهِك عدوه حرمته ، وكان عاصم أمير السَّريَّة يوم الرجيع ، وقد قُتِل فيها وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده ، لأنه قَتَل عظيماً من عظمائهم يوم بدر ، فبعث الله عليه مثل الظُّلَّة من الدَبْر ، فحمته من رُسُلهم فلم يقدروا منه على شيء[٣].

٦ – عامر بن فهيرة رضي الله عنه. لمَّا قُتِلَ رُفِعَ إلى السماء ، حتى رأوا السماء بينه وبين الأرض[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب غزوة الرجيع وبئر معونة ، برقم ٤٠٨٦ ، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٧ / ٤٣٨ ، وأورده ابن حجر في الإصابة ١ / ٤١٩ ، وابن عبد البر في الاستيعاب ١ / ٤٨٠.

(٢) الدَبْر : جماعة النحل ، لا واحد لها ، ويجمع على دُبُور ، ويقال أيضاً للزنابير : دَبْرٌ ، ومنه قيل لعاصم بن ثابت : حَمِيُّ الدَبْرِ. الصحاح ١ / ٥٣٦ مادة دبر.

(٣) أخرجه البخاري في الموضع السابق ، فهو حديث واحد في غزوة الرجيع ، وأورده في الإصابة ٢ / ٢٤٥ ، الاستيعاب ٣ / ١٣٢.

(٤) وقد اختلفوا في وضعه إلى الأرض بعد رفعه ، فرواية البخاري الآتية تنص

ذلك أن عامر بن فهيرة قُتِلَ يوم بئر معونة ، على يد عامر بن الطفيل ، قال ابن الطفيل : لقد رأيته بعدما قُتِلَ رُفِعَ إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض ثم وضع[١].

* إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة وغيرها في هذا الشأن ، والتي يطول المقام بذكرها.

ثالثاً : الآثار.

فكما أثبت القرآن والسنة الكرامة ، كذلك دلت الآثار الكثيرة على وقوعها لبعض الصالحين من سلفنا رضوان الله عليهم أجمعين ، ومما وردت به الآثار ما يأتي :

١ - أُسَيد بن حُضَير وعَبَّاد بن بشر رضي الله عنهما. كانا عند رسول الله ﷺ في حاجة ، فلما خرجا والظلام شديد ، أضاءت لكل منهما عصاه الطريق حتى بلغ أهله[٢].

٢ - رؤية عمر بن الخطاب رضي الله عنه لجيشه بنهاوند ، ونداؤه - وهو على المنبر - قائد الجيش : يا سارية الجبل ، وسماع سارية نداء عمر ، مع البعد الشاسع بين نهاوند - بأرض فارس - والمدينة المنورة[١].

٣ - مستجابوا الدعوة ، كسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد رضي الله عنهما.

ذلك أن سعد بن أبي وقاص دعا على أسامة بن قتادة بالكوفة ، حين اتهمه أسامة بأنه لا يسير بالسرية ولا يقسم بالسوية ولا يعدل في القضية، فقال سعد رضي الله عنه:أما والله لأدعون بثلاث:

اللهم إن كان عبدك هذا كاذبا ، قام رياء وسمعة، فأطل عمره ، وأطل فقره وعرضه بالفتن ، وكان - أسامة - بعد إذا سئل يقول : شيخ كبير مفتون أصابتني دعوة سعد.

يقول راوي الحديث : فأنا رأيته - يعني أسامة - بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر ، وإنه ليتعرض للجواري في الطرق يغمزهن[٢].

وأما سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه فقد دعا على أروى بنت أويس ، حين خاصمته في بعض داره إلى مروان بن الحكم ، فقال سعيد : اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها واجعل قبرها في دارها[٣] ، قال: فرأيتها عمياء تلتمس الجدر ، تقول : أصابتني دعوة سعيد بن زيد ، فبينما هي تمشي في الدار ، مرت على بئر في الدار فوقعت فيها ، فكان قبرها[٤].

على وضعه إلى الأرض ، وذكر الواقدي في روايته أن الملائكة وارته ولم يره المشركون قال عروة : طُلِبَ عامر بن فهيرة يومئذٍ في القتلى فلم يُوجَد ، فيرون أن الملائكة دفنته أورفعته. فتح الباري ٧ / ٤٥١ ، الاستيعاب ٣ / ٨.

(١) أخرجه البخاري في الموضع السابق ، برقم ٤٠٩٣ ، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٧ / ٤٤٩ ، وأورده في الإصابة ٢ / ٢٥٦ ، الاستيعاب ٣ / ٧ ، ٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، باب منقبة أسيد بن حضير وعباد بن بشر ، برقم ٣٨٠٥ ، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري٧/ ١٥٦.

(١) قال ابن حجر في الإصابة : إسناده حسن،تاريخ الخلفاء للسيوطي / ١٠٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأذان ، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها ، برقم ٧٥٥ ، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٢ / ٢٧٦.

(٣) وفي رواية - لمسلم أيضاً - : (واقتلها في دارها).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب المساقاة ، باب تحريم الظلم وغصب الأرض ،

* إلى غير ذلك مما أخبرت به الآثار ، وتواردت به الأخبار ، منها ما هو موثوق السند ، ومنها ما هو غير ذلك ، مما يطول المقام بذكره ، وفيما ذُكِرَ غُنْيَة إن شاء الله تعالى. وأهل السنة لا ينكرون ذلك ...

* وبعد هذا القدر من البيان. يثور في النفس سؤال ، مؤداه :

هل كل خارق للعادة يُعَدّ كرامة ؟ ويُعَدّ صاحبه ولياً؟

وللإجابة عن ذلك نقول وبالله التوفيق :

ليس كل خارق للعادة كرامة ، ولا يُعتبر صاحبه ولياً.

ذلك أن الخوارق للعادة أقسام ، منها : المعجزة والكرامة والإرهاص والمعونة والإهانة والاستدراج.

* أما المعجزة. فهي أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي ، يظهره الله تعالى على يد كل مدعي النبوة ، تصديقاً له في دعواه ، مع عدم القدرة على المعارضة بمثله ، كمعجزات الأنبياء – عليهم السلام – وهي كثيرة جداً ومشهورة.

* وأما الكرامة. فهي أمر خارق للعادة ، يظهره الله تعالى على يد ولي من أوليائه ، غير مقرون بالتحدي ولا بدعوى النبوة ، كما سبق في الأمثلة من القرآن والسنة والآثار.

* وأما الإرهاص. فهو أمر خارق للعادة ، يظهره الله تعالى للنبي قبل بعثته تهيئة للناس لقبول دعوته وتأكيداً لها ، كتكليم عيسى لأمه من تحتها عند ولادته ، ومخاطبته قومها ومحاورته عنها ، وكحادث أصحاب الفيل في العام الذي ولد فيه النبي ﷺ ، وكمنع الشياطين من استراق السمع ، وإظلال الغمام له ﷺ قبل البعثة.

برقم ١٦١٠ ، صحيح مسلم بشرح النووي ٦ / ٥٤.

* وأما المعونة. فهي أمر خارق للعادة ، يظهره الله تعالى على يد رجل من المؤمنين ، ممن لم يُعرف بينهم بالولاية ، كإنقاذ من مهلكة ، وتخليص من كارثة محققة.

* وأما الإهانة. فهي أمر خارق للعادة ، يظهره الله تعالى على يد مدعي النبوة ، تكذيباً له في دعواه ، ليكشف سره ، ويوضح كذبه للناس ، كأن يَدَّعِي إنطاق الجماد ، فينطق بتكذيبه مثلاً ، وذلك مثل ما وقع لمسيلمة الكذاب حين تفل في بئر ليكثر ماؤها فغار الماء ، وحين تفل في عين أرمد فعميت عينه السليمة[1].

* وأما الاستدراج. فهو أمر خارق للعادة ، يظهره الله تعالى على يد دَعِي كاذب ، استدراجاً وامتحاناً له ولغيره ، كالذي يظهر على يد الدجال آخر الزمان.

* ولعله – بعد هذا التقسيم – يتضح لنا الفرق بين الكرامة وبين غيرها من خوارق العادات ، ويظهر لنا أن كل خارق للعادة ليس كرامة من الكرامات ، والله تعالى من وراء القصد ....

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من عباده الصالحين ، وأوليائه المتقين وممن هم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، اللهم آمين.

الدرس السابع : جواز الكذب لمصلحة شرعية.

في قول الراهب للغلام : إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي ، وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر. أمر صريح للغلام بالكذب على كلا الطرفين ، لينجو من الأذى الواقع عليه فعلاً.

وفي ذلك ما يدل على جواز الكذب إذا دعت إليه مصلحة

---

(١) دليل الفالحين ٤ / ٣١٥ بتصرف.

شرعية ، عند حدود ما تقتضيه الضرورة.

وقد علَّقَ الإمام النووي على الحديث بقوله : (في الحديث جواز الكذب في الحرب ونحوها ، وفي إنقاذ النفس من الهلاك ، سواء نفسه أو نفس غيره ، ممن له حرمة). أ. هـ[1].

أقول : وإنما جَوَّزَ الراهب ذلك لأنه رأى أن مصلحة تخلّف الغلام عنده تزيد على مفسدة تلك الكذبة ، وهو أمر موافق لأصول الشريعة الإسلامية التي بُنِيت على دفع أعلى المفسدتين بارتكاب أخفهما ضرراً.

ومما يدل على جواز ذلك ما ورد في الحديث الصحيح من الرخصة في الكذب في المواطن الثلاثة : الحرب ، ولإصلاح الخصمين ، ولإرضاء الأزواج ، وسيأتي الحديث بنصه قريباً إن شاء الله.

* ومما لا شك فيه أن الحالة التي في حديثنا ، أعلى مصلحة من إصلاح ذات البين ، وإرضاء الأزواج والزوجات.

* ونحن لا نقصد من كلامنا في هذا الدرس فتح باب الكذب على مصراعيه ، أو الترخيص فيه عموماً.

فالكذب خُلق سيء ، مجانف للإيمان ، وخصلة ذميمة من خصال المنافقين وهو كبيرة من الكبائر ، وما كان من خُلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب ، لذلك نهى الله تعالى عنه ورسوله ﷺ ، والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة ومشهورة.

* وإنما القصد هو بيان أن الكذب ليس على درجة واحدة ، وإنما يتفاوت قطعاً بحسب ضرره ، وقد يُباح إذا دعت إليه

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٩ / ٣٥٩.

الضرورة ، فإذا دعت إليه الضرورة أو اقتضته المصلحة جاز ، وإلا فلا.

وهذا أمر له ضوابطه الشرعية ، والضرورة تقدر بقدرها.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح:

(واتفقوا على جواز الكذب عند الاضطرار ، كما لو قصد ظالم قتل رجل وهو مختفٍ عنده ،فله أن ينفي كونه عنده ، ويحلف على ذلك ولا يأثم) أ. هـ[1]

وقال الإمام النووي :

(اعلم أن الكذب وإن كان أصله محرماً ، فيجوز في بعض الأحوال بشروط ، ومختصر ذلك أن الكلام وسيلة إلى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه ، وإن لم يمكن تحصيله إلا بالكذب جاز الكذب.

ثم إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحاً كان الكذب مباحاً ، وإن كان واجباً كان الكذب واجباً ، ثم ذكر لذلك أمثلة....[2].

* ولم أجد من وضح هذا الجانب ووفاه حقه من البحث كالإمام الغزالي في سفره العظيم (إحياء علوم الدين) ، ويحسن بنا أن ننقل هنا مقتطفات من كلامه بلفظه ، لما فيها من عموم الفائدة والشرح والتحقيق والبيان الوافي ، حيث يقول رحمه الله :

بيان ما رُخِّصَ فيه من الكذب.

اعلم أن الكذب ليس حراماً لعينه ، بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره ، فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه

---

(١) فتح الباري ٥ / ٣٥٤.

(٢) راجع : رياض الصالحين ، باب بيان ما يجوز من الكذب ، صفحة ٤٨٧.

فيكون جاهلاً ، وقد يتعلق به ضرر غيره ، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة ، فالكذب محصل لذلك الجهل ، فيكون مأذوناً فيه ، وربما كان واجباً.

قال ميمون بن مهران : الكذب في بعض المواطن خير من الصدق ، أرأيت لو أن رجلاً سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله ، فدخل داراً ، فانتهى إليك فقال : أرأيت فلاناً. ما كنت قائلاً ؟ ألست تقول : لم أره ؟ وما تصدق به ، وهذا كذب واجب.

فنقول : الكلام وسيلة إلى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعاً فالكذب فيه حرام ، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحاً ،

وواجب إن كان المقصود واجباً ، كما أن عصمة دم المسلم واجبة.

ومهما كان لا يتم مقصود الحرب ، أو إصلاح ذات البين ، أو استمالة قلب المجني عليه إلا بكذب فالكذب مباح ، إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغني عنه ، وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة ، فيكون الكذب حراماً في الأصل إلا لضرورة.

والذي يدل على الاستثناء ما روي عن أم كلثوم[1] قالت : ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث :

(الرجل يقول القول يريد به الإصلاح ، والرجل يقول القول في الحرب والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها)[2].

---

(١) هي الصحابية الجليلة السيدة أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، إحدى المهاجرات الأول اللاتي بايعن النبي ﷺ. هكذا عند الإمام مسلم في حديثه.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة ، باب تحريم الكذب وبيان المباح منه ،برقم ٢٦٠٥،بلفظ:(لم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس كذب إلا في ثلاث: الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها) صحيح مسلم بشرح النووي ٨ / ٤٠٣.

وأخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في إصلاح ذات البين ، برقم ١٩٤٥ ، سننه ٣ / ٣٧٧ ، وأخرجه أبو داود في كتاب الأدب ، باب في إصلاح ذات البين ، برقم ٤٩٢١ ، سننه ٤ / ٢٨٢.

وأخرجه أحمد من حديث أم كلثوم بنت عقبة ، برقمي ٢٧١٥٠ ، ٢٧١٥٣، المسند ١٨ / ٤٩١ ، ٤٩٢.

(١) متفق عليه ، أخرجه مسلم في نفس الموضع السابق.

وأخرجه البخاري في كتاب الصلح ، باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس ، برقم ٢٦٩٢ ، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري٥ / ٣٥٣.

وقالت أيضاً : قال رسول الله ﷺ : (ليس بكذاب من أصلح بين اثنين ، فقال خيراً أونمى خيراً)[1].

فهذه الثلاثة ورد فيها صريح الاستثناء ، وفي معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره.

أما ما له : فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره ، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها. فله أن ينكر ذلك ، فيقول : ما زنيت وما سرقت ، قال ﷺ : (من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله)[2]

---

(٢) أخرجه الحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما في موضعين ، الأول في كتاب التوبة ، برقم ٧٦١٥ ، والثاني في كتاب الحدود ، برقم ٨١٥٨ ، وفي الموضعين بلفظ : (اجتنبوا هذه القاذورة التي نهى الله عنها ، فمن ألم فليستتر بستر الله وليتب إلى الله ، فإنه من يبدلنا صفحته نقم عليه كتاب الله عز وجل).

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي في التلخيص.

المستدرك ٤ / ٢٧٢ ، ٤٢٥.

، وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى فللرجل أن يحفظ دمه وماله – الذي يؤخذ ظلماً – وعرضه بلسانه وإن كان كاذباً.

وأما عرض غيره : فبأن يسأله عن سر أخيه فله أن ينكره ، وأن يصلح بين اثنين ، وأن يصلح بين الضرات من نسائه ، بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه ، وإن كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعد لا يقدر عليه فيعدها في الحال تطييباً لقلبها ، أو يعتذر إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به.

ولكن الحد فيه أن الكذب محذور ، ولو صدق في هذه المواضع تولد منه محذور ، فينبغي أن يقابل أحدهما بالآخر ، ويزن بالميزان القسط ، فإن علم أن المحذور الذي يحصل بالصدق أشد وقعاً في الشرع من الكذب فله الكذب ، وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق ، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى لأن الكذب يباح لضرورة ، أو حاجة مهمة ، فإن شك في كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم ، فيرجع إليه.

ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحترز الإنسان من الكذب ما أمكنه ، وكذلك مهما كانت الحاجة له فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب ، فأما إذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة لحق الغير والإضرار به .أ .هـ[1].

وهو كلام طيب – ما أحوجنا إلي تفهمه – جزى الله صاحبه خير الجزاء.

---

(١) إحياء علوم الدين ٣ / ١٤٦ وما بعدها.

* ومن هذا القبيل أيضاً ما رواه القرطبي في تفسيره عن فقهاء التابعين رضي الله عنهم أجمعين ، من جواز الكذب والحلف عليه لتخليص نفس الحالف أو ماله – أو نفس الغير أو ماله – من اعتداء المعتدين أو بغي الباغين ، قال رحمه الله :

(روى عن الحسن أن عيوناً لمُسَيْلِمَة أخذوا رجلين من أصحاب النبي ﷺ فذهبوا بهما لمسيلمة ، فقال لأحدهما : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ قال: نعم .قال أتشهد أني رسول الله ؟ قال : نعم ، فَخَلّى عنه ، وقال للآخر : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم ، قال : وتشهد أني رسول الله ؟ قال : أنا أصم لا أسمع ، فقدمه وضرب عنقه ، فجاء هذا إلى النبي ﷺ فقال : هلكتُ قال : ما أهلكك ؟ فذكر الحديث.

قال – ﷺ – أمّا صاحبك فأخذ بالثقة ، وأما أنت فأخذت بالرخصة على ما أنت عليه الساعة[1]. قال : أشهد أنك رسول الله. قال – ﷺ – أنت على ما أنت عليه[2].

ثم قال القرطبي : الرخصة فيمن حلفه سلطان ظالم على نفسه أو على أن يدله على رجل أو مال رجل.

فقال الحسن : إذا خاف عليه وعلى ماله فليحلف ولا يُكَفِّر يمينه ، وهو قول قتادة إذا حلف على نفسه أو مال نفسه ، وسُئِلَ أنس بن مالك عن الرجل يؤخذ بالرجل ، هل ترى أن يحلف ليَقِيه

---

(١) وفي رواية : (أما صاحبك فمضى على إيمانه فهنيئاً له ، وأما أنت فأخذت بالرخصة فلا شيء عليك)..

(٢) وأورده السيوطي في الدر المنثور ٥ / ١٧٢ ، والشوكاني في فتح القدير ٣ / ١٩٩ وقال : هو حديث مرسل.

بيمينه ؟ فقال : نعم ، ولأن أحلف سبعين يميناً وأحنث أحبَّ إليَّ أن أدلَّ على مسلم.

وكان الوليد بن عبد الملك يأمر جواسيس يتجسسون الخلق يأتونه بالأخبار فجلس رجل منهم في حلقة رجاء بن حَيْوة ، فسمع بعضَهم يقع في الوليد ، فرفع ذلك إليه ، فقال : يا رجاء ! أُذْكَرُ بالسوء في مجلسك ولم تغيّر ! فقال : ما كان ذلك يا أمير المؤمنين.

فقال له الوليد : قل آلله الذي لا إله إلا هو. قال : آلله الذي لا إله إلا هو. فأمر الوليد بالجاسوس فضربه سبعين سوطاً. فكان يلقى رجاء فيقول : يا رجاء. بك يستقي المطر وسبعون سوطاً في ظهري ! فيقول رجاء : سبعون سوطاً في ظهرك خير لك من أن يُقتَل رجل مسلم) أ. هـ[1].

---

(١) تفسير القرطبي ١٠ / ١٢٤ ، ١٢٥ ، عند الآية ١٠٦ من سورة النحل.

* ولا يفوتنا في هذه المقام أن ننبه إلى أن الأحوط في كل هذا أن يلجأ الإنسان إلى التعريض وأن يُوَرِّي[2] ، وقد نقل عن السلف قولهم (إن في المعاريض مندوحة عن الكذب)[3]. وروى عن عمر وابن عباس – رضي الله عنهم – وغيرهما قولهم :

---

(٢) التعريض ضد التصريح ، والتورية بالشيء عن الشيء أن يقصد بعبارته مقصوداً صحيحاً غير ما يفهمه المخاطب.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد / ٢٣٣ ، برقم ٩٨٠ ، عن عمران بن حصين رضي الله عنه ، وعَنْوَنَ به بابه رقم ١١٦ من كتاب الأدب في صحيحه ، وذكر فيها حديثاً عن أنس قال : مات ابن لأبي طلحة ، فقال : كيف الغلام ؟ قالت أم سليم: هدأت نفسه ، وأرجو أن يكون قد استراح ، وظن أنها صادقة.

صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ١٠ / ٦٠٩ .

(أما في المعاريض ما يكفي المسلم عن الكذب)[1].

مع التحذير أيضاً من ولوج باب الكذب بالمعاريض.

فإذا اضطر الإنسان إلى الكذب ودعت إليه الحاجة فعليه أن يُعَرِّض أو يُوَرِّي ، ولو ترك التعريض أو التورية وأطلق عبارة الكذب فليس بحرام. أما إذا لم تكن هناك حاجة أو ضرورة أو مصلحة معتبرة فلا يجوز التعريض ولا التصريح أيضاً ، وإن كان التعريض والتورية أهون.

* ولعله بعد هذا قد اتضح الأمر ، وظهر أن الدين الإسلامي دين شامل يجمع بين المثالية والواقعية ، وأنه قد رخص لأتباعه في الكذب لمصلحة شرعية ، أو إذا دعت إليه ضرورة ، وذلك مراعاة لطبيعة الحياة ومصالح الناس فيها.

ولكنا نؤكد ثانية وثالثة ورابعة على أن هذا الأمر له ضوابطه الشرعية ، وأن الضرورة تقدر بقدرها ، ويختص بذلك أهل العلم.

نسأل الله العلي القدير أن يُطَهِّرَ ألسنتنا من الكذب ، وأن يجري الحق على قلوبنا وألسنتنا ، وأن يجعلنا من عباده الصادقين ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ،

إنه سبحانه قريب مجيب الدعاء .....

الدرس الثامن : الاعتناء بتربية النشء.

وهذا درس آخر نأخذه من طلب الساحر من الملك أن يبعث إليه غلاماً يعلمه السحر ، وقد استجاب الملك لطلب ساحره، فاختار له غلاماً مناسباً وأرسله إليه.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد / ٨٩٩ ، باب المعاريض.

وإنما فعلا ذلك لثقتهم بالثمرة الكبيرة المَرْجوَّة من الاهتمام بالنشء ، والتركيز في تربيتهم وإعدادهم لتحمل المسئولية.

نعم لقد أدرك الساحر – كما أدرك الملك – هذا المعنى ، فلم يكن المطلوب شاباً أو شيخاً أو كهلاً وإنما كان غلاماً ، لقدرة الناشئة على التلقي والتعلم وقابليتهم للتربية والتهذيب.

* وإذا كان أهل الباطل يهتمون بهذا الأمر ، فأولى بأهل الحق أن ينتبهوا إليه ويستمسكوا به ، خاصة وأن الاعتناء بتربية الناشئة مطلب إسلامي كريم.

فالدين الإسلامي الحنيف يأمر الأولياء بحسن رعاية الناشئة والاعتناء بهم وتوجيههم إلى ما فيه صلاح أمرهم.

وذلك بتلقينهم – منذ نشأتهم الأولى – أصول الإيمان وأركان الإسلام وأحكام الشريعة ، وتأديبهم على محبة الرسول الكريم ﷺ وآل بيته ، وعلى حفظ القرآن وتعلم السير والمغازي ، حتى ينشأ الولد ويتربى على الإيمان الكامل والعقيدة الراسخة وحب الرعيل الأول ، فإذا ترعرع وكبر لم يتزعزع إيمانه ، ولم تتأثر عقيدته بدعايات أهل الباطل والفساد.

إن الولد إذا تيسر له عامل التربية الإسلامية الفاضلة ، وعامل البيئة الصالحة ، فإنه – بلا شك – ينشأ على الإيمان الحق ، ويتخلق بأخلاق الإسلام ، ويصل إلى قمة الفضائل والمكارم.

فعلى المربي أن ينشأ ولده على مفاهيم التربية الإيمانية ، وأسس التعاليم الإسلامية ، حتى يرتبط بالإسلام عقيدة وعبادة ، ويقبل به منهاجاً ونظاماً ، فلا

يعرف بعد هذا التوجيه والتربية سوى الإسلام ديناً والقرآن إماماً ودستوراً والرسول قدوة وقائداً وزعيماً.

والاعتناء بتربية الناشئة أمر مستمد من وصايا الرسول الكريم ﷺ وإرشاداته في هذا المجال ، وهي كثيرة جداً ، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي :

١ – ما كان من هَدْيِهِ ﷺ من أن يُفتَح على الصبيان أول كلمة بـ (لا إله إلا الله) ، لتكون كلمة التوحيد وشعار الدخول في الإسلام أول ما يقرع سمع الطفل ، مع استحباب التأذين في أذن المولود اليمنى وإقامة الصلاة باليسرى.

ولا يخفى ما في هذا العمل من أثر في تلقين الولد أصل العقيدة ومبدأ التوحيد والإيمان.

٢ – قوله ﷺ : (مُرُوا أولادكم بالصلاة وهو أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ،وفرقوا بينهم في المضاجع)[1].

ويقاس على الصلاة الترويض على بقية العبادات ، كالصوم إذا

---

(١) أخرجه – بهذا اللفظ – أبو داود في كتاب الصلاة ، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة برقم ٤٩٥ ، وبنحوه في الحديث السابق له برقم ٤٩٤ ، سننه ١ / ١٣٠.
وأخرجه – بنحوه – الترمذي في أبواب الصلاة ، باب ما جاء متى يؤمر الصبي بالصلاة ، برقم ٤٠٧ ، وقال : حديث حسن صحيح. سننه ١ / ٤١٦.
واخرجه أحمد من حديث سبرة بن معبد ، برقم ١٥٢٧٦ ، المسند ١٢ / ١٣٨
وأخرجه الحاكم في كتاب الصلاة ، برقم ٩٤٨ ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي في التلخيص ، المستدرك ١ / ٣٨٩.

كان الغلام يطيقه ، والزكاة بأن يعطيه الولي ما يتصدق به ، وهكذا ....

حتى يتعلم الولد أحكام هذه العبادات منذ نشأته ، ويعتاد أداءها والقيام بها منذ صغره ، فإذا كبر لم تشق عليه ، ولله در من قال :

وينشأ ناشئ الفتيان منّا
على ما كان عوّده أبوه
وما دان الفتى بحجىً ولكن
يعوده التدين أقربوه

فإذا لم يتعود الولد القيام بهذه العبادات منذ الصغر شق عليه بعد ذلك القيام بها في الكبر ، وفي هذا قيل :

قد ينفع الأدبُ الأولادَ في صغر وليس ينفعهم من بعده أدب
إن الغصون إذا عدلتها اعتدلت ولا يلين - ولو لينّته - الخشب

٣ - قوله ﷺ : (لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع)[1].

٤ - وقوله ﷺ : (ما نحل والد ولدا من نحل أفضل من أدب حسن)[2].

• ومما ورد عن سلفنا الصالح من الوصايا والإرشادات في هذا المجال ما يأتي :

١ - روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : (مروا أولادكم بامتثال الأوامر واجتناب النواهي ، فذلك وقاية لهم ولكم من النار).

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في أدب الولد ، برقم ١٩٥٨ وقال : هذا حديث حسن غريب ، سننه ٣ / ٣٨٢ ، ٣٨٣.

(٢) أخرجه الترمذي في الموضع السابق ، برقم ١٩٥٩ ، وحكم عليه كسابقه.

٢ - وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : أدب ابنك فإنك مسئول عنه ماذا أدبته وماذا علمته ، وهو مسئول عن برك وطاعته لك).

٣ - وعن سفيان الثوري رضي الله عنه أنه قال : ينبغي للرجل أن يُكْرِه ولده على طلب الحديث ، فإنه مسئول عنه.

٤ - وروي أن المنصور بعث إلى مَنْ في الحبس مِنْ بني أمية يقول لهم : ما أشد ما مَرَّ بكم في هذا الحبس ؟ فقالوا : ما فقدنا من تربية أبنائنا.

٥ - وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال : (كنا نُعَلِّم أولادنا مغازي رسول الله ﷺ كما نعلمهم السورة من القرآن).

إلى غير ذلك من الآثار الواردة في هذا الشأن.

• ومما هو أعظم من ذلك كله أن النبي ﷺ كان لا يجد فرصة لتعليم الغلمان والناشئة إلا وانتهزها ، ومن ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال :

(كنت خلف النبي ﷺ يوماً ، فقال : (يا غُلام. إني أعلّمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجِدْهُ تُجَاهَك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رُفِعَتِ الأقلام وجَفَّتِ الصُحُف)[1].

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة ، باب رقم ٥٩ ، حديث رقم ٢٥٢٤ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، سننه ٤ / ٢٣١ ،

وفي رواية : (احفظ الله تجده أمامك ، تَعرَّفْ إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب،وأن مع العسر يسراً)[١].

■ يا سبحان الله ! انظر أخي الكريم – أكرمكم الله – إلى هذه الكلمات

العظيمة ، وما تحمل من المعاني البليغة ، والتي يعجز عن إدراكها الكثير من المسلمين في واقعنا المعاصر ، تلك التي يعلمها رسول الله ﷺ لهذا الغلام الصغير.

ألا ما أحوجنا – نحن المسلمين – اليوم إلى تعلمها ، والثقة بما فيها ، وأن نربي أبناءنا وبناتنا وناشئة المسلمين أجمعين على هذه الأسس الفاضلة ، وتلك المعاني السامية ، حتى يتربوا على العبودية الحقة لله رب العالمين ، فنضمن سلامة عقيدتهم من الزيغ والإلحاد والانحراف.

* وموقف آخر لرسول الله ﷺ يعلم فيه عمر بن أبي سلمة ، وكان غلاماً في حجر النبي ﷺ ، وكانت يده تطيش في الصحفة ، فيقول له ﷺ : (يا غلام ! سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك)[٢].

وأخرجه أحمد ، برقم ٢٦٦٩ ، وبنحوه برقم ٢٧٦٣ ، المسند ٣ / ١٩٥ ، ٢٢٩ ، وأورده ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم الحكم / ٢٢٨ ، الحديث التاسع عشر.

(١) أخرجه أحمد في المسند – ٣ / ٢٤٦ – برقم ٢٨٠٤ ، وأورده ابن رجب في الموضع السابق.

(٢) أخرجه أحمد في المسند– ١٢ / ٥٢٥ – برقم ١٦٢٨٢ ، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة ، باب الأكل

* هكذا يعلمنا إسلامنا الحنيف كيف نربي نشئنا على الإسلام الصحيح ، والإيمان الصادق ، والعقيدة السليمة ، وتلك مسئولية عظمى يلقيها الإسلام على عاتق الأولياء والمربين كل بحسب موقعه ومكانته ، فكل فرد من المسلمين راع ، وكل راع مسئول عن رعيته. ألا فليتقي الجميع ربهم.

ويوم أن أهمل المسلمون نشأهم ، وانشغلوا عن تربيتهم والاعتناء بشأنهم ، وقعوا فيما وقعوا فيه من الانحراف والزيغ والفساد ، بل واعتناق مبادئ الكفر والإلحاد ، وأصبح المسلم كاليتيم تماماً ، ويرحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي حيث يقول :

ليس اليتيم من انتهى أبواه
من هم الحياة وخلفاه ذليلاً
إن اليتيم هو الذي تلقى له
أماً تخلت أو أباً مشغولاً

* فلنحذر جميعاً من عدم الاعتناء بالناشئة أو التساهل في تربيتهم ، فإن ذلك سيؤدي – غالبا – إلى ما لا تحمد عقباه ، نسأل الله السلامة.

* فولي الأمر الذي يدفع بولده إلى المدارس الأجنبية ، والمعاهد التبشيرية يرضع من لبانها ، ويتلقف التعليم والتوجيه على يد مبشريها ... لا شك أن الولد سينطبع على الزيغ والضلال ، وستترسخ في نفسه مشاعر الكره للإسلام ، وأحقاد العداوة لهذا الدين الحنيف.

* وولي الأمر الذي يسلم ولده لأساتذة أشرار ، يلقنونه مبادئ الكفروالإلحاد ، ويغرسون في قلبه بذور الضلال ..... لا شك أن الولد سينشأ على التربية

باليمين ، برقم ٣٢٦٧ ، سننه ٢ / ١٠٨٧.

الإلحادية ، والتوجيه العلماني الخطير.

* وولي الأمر الذي يسمح لولده أن يطالع ما شاء من كتب الملحدين والماديين ، ويقرأ ما أراد من مطاعن المبشرين والمستعمرين .. لا شك أن الولد سيتشكك بحقيقة عقيدته ودينه ، ويهزأ بتاريخه وأمجاده ، ويكون حرباً على مبادئ الإسلام.

* وولي الأمر الذي يرخي لولده العنان ، ويترك حبله على غاربه ليخالط من رفقاء الزيغ والضلال ما يرغب ، ويعتنق من المبادئ الضالة والأفكار المستوردة ما يشاء ... لا شك أن الولد سيسخر لا محالة بكل القيم الدينية والمبادئ الخلقية التي جاءت بها الأديان والشرائع.

وولي الأمر الذي يترك المجال لولده لأن ينتمي إلى أحزاب ومنظمات علمانية ، وإلى هيئات لا ترتبط بالإسلام عقيدة وفكراً ومنهاجا .....

لا شك أن الولد سيتربى على عقائد ضالة وأفكار منحرفة ومناهج ما أنزل الله بها من سلطان ، بل سيكون حرباً على القيم والمقدسات !!.

وليس النبتُ ينبت في جنان
كمثل النبت ينبتُ في الفَلاةِ
وهل يرجى لأطفالٍ كمال
إذا ارتضعوا ثُديُّ الناقصات

* وخلاصة القول :

إن مسئولية الاعتناء بالنشء وتربيتهم إيمانياً ..... لهي مسئولية هامة وخطيرة ، لكونها منبع الفضائل،ومبعث الكمالات ..

بل هي الركيزة الأساسية لدخول الولد في حظيرة الإيمان ، وقنطرة الإسلام ، وبدون هذا الاعتناء وتلك التربية لا ينهض الولد بمسئولية ، ولا يتصف

بأمانة ، ولا يعرف غاية ، ولا يتحقق بمعنى الإنسانية الفاضلة ، ولا يعمل لمثل أعلى ولا لهدف نبيل. بل سيعيش عيشة البهائم ، ليس له هم سوى أن يسد جوعته ويشبع غريزته ، وينطلق وراء الشهوات والملذات ، ويصاحب الأشقياء والمجرمين[1].

فعلى ولي الأمر أو المربي ألا يترك فرصة سانحة تمر إلا زود النشء بالبراهين والإرشادات التي تثبت الإيمان وتقوي العقيدة ، وترسخ اليقين ، فيعود ذلك على الأمة جميعاً بالخير والرفعة والسعادة في الدين والدنيا والآخرة.

---

(١) راجع كتاب تربية الأولاد في الإسلام ، للشيخ عبد الله ناصح علوان بجزأيه الأول والثاني ، ففيه كلام طيب في هذا الموضوع ، نقلت بعضاً منه هنا مع التصرف في بعض عباراته ، فجزاه الله خيراً.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة ، وأن يبصرنا بعيوبنا ، وأن يوفقنا لتربية أولادنا ، وأن يبارك لنا في ذرياتنا ، وأن يجعل لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، ويجعلنا للمتقين إماماً ، اللهم آمين .

الدرس التاسع : الالتجاء إلى الله بالدعاء في الشدائد.

لقد أثبت الحديث الذي ورد في قصة أصحاب الأخدود أن الغلام كان مستجاب الدعوة ، فكان – بسبب الدعاء – يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء ، وحينما أراده الملك الطاغية بالسوء واجهه الغلام بسلاح الدعاء واللجوء إلى الله تبارك وتعالى ، فكان غلام الدعوة في كل موقف يلجأ إلى الله قائلاً : اللهم اكفنيهم بما شئت.

وقد استجاب الله دعاء الغلام فنجاه مما أراد له الطاغية المتأله.

وهذا يرشدنا – فيما يرشد – إلى وجوب الالتجاء إلى الله تعالى في كل وقت وحين ، وخاصة في أوقات الشدائد.

فإن الله عز وجل يحب من عبده أن يلجأ إليه دائما ، لذلك أمر الحق تبارك وتعالى عباده أن يدعوه ، وجعل هذا الدعاء عبادة له سبحانه ، فقال تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)[1].

تدبر معي أخي الكريم هذه الآية جيداً ، ففي أولها أمر بالدعاء ، وفي آخرها إخبار عن حال المستكبرين عن الدعاء ، لكن الآية تقول : (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي). ولم تقل : (عن دعائي). لماذا ؟ لأن الدعاء هو العبادة ، كما ورد على لسان الرسول الكريم ﷺ.

فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول :

(إن الدعاء هو العبادة ، ثم قرأ : وقال ربكم ادعوني استجب لكم... الآية[2].

وفي رواية للترمذي عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال : (الدعاءُ مُخُّ العبادة)[1].

---

(١) الآية ٦٠ من سورة غافر.

(٢) أخرجه الحاكم في كتاب الدعاء ، برقم ١٨٠٢ ، وقال : هذا حديث صحيح ، ووافقه الذهبي في التلخيص ، المستدرك ١ / ٦٦٧ ، وأخرجه الترمذي في كتاب الدعوات ، باب ما جاء في فضل الدعاء ، برقم ٣٣٨٣ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، سننه ٥ / ٣٤٤ ، وأخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ، باب الدعاء ، برقم ١٤٧٩ ، سننه ٢ / ٧٧ ، وأخرجه ابن ماجة في كتاب الدعاء ، باب فضل الدعاء ، برقم ٣٨٢٨ ، سننه ٢ / ١٢٥٨.

بل أكثر من ذلك بَيَّنَ الرسول ﷺ أن الدعاء هو أكرم شيء على الله عز وجل ، وأن عدم الدعاء من أسباب غضب الله تعالى على العبد ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال ﷺ : (ليس شيء أكرم على الله من الدعاء)[2].

وعنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : (إنه من لا يدعو الله يغضب عليه)[3].

فعلى المسلم دائماً أن لا يغفل عن دعاء الله تبارك وتعالى في السراء والضراء ، وان يتعرف إلى الله عز وجل في السراء ليعرفه في الضراء ، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من سَرَّه أن يُستجاب له عند الكرب والشدائد فليكثر الدعاء في الرخاء)[4].

---

(١) أخرجه الترمذي في الموضع السابق ، برقم ٣٣٨٢ ، وقال : هذا حديث غريب من هذا الوجه.

(٢) أخرجه الحاكم في كتاب الدعاء ، برقم ١٨٠١ ، وقال : هذا حديث صحيح ، ووافقه الذهبي في التلخيص ، المستدرك ١ / ٦٦٦ ، وأخرجه الترمذي – وحسنه – في كتاب الدعوات ، باب ما جاء في فضل الدعاء ، برقم ٣٣٨١ ، سننه٥/٢٤٣ ، وأخرجه ابن ماجة في كتاب الدعاء ، باب فضل الدعاء برقم ٣٨٢٩ ، سننه٢/١٢٥٨.

(٣) أخرجه الحاكم في الموضع السابق ، برقم ١٨٠٦ ، ١٨٠٧ ، وقال : صحيح الإسناد ، المستدرك ١ / ٦٦٧، وأخرجه الترمذي في الموضع السابق ، برقم ٣٣٨٤ سننه٥/٢٤٤ ، وكذا ابن ماجة ، برقم ٣٨٢٧.

(٤) أخرجه الحاكم في الموضع السابق ، برقم ١٩٩٧ ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، المستدرك ١ / ٧٢٩ ،

* ومن كرم الله سبحانه وتعالى ورحمته بعبده أنه عز وجل إذا رفع العبد إليه يديه لا يردهما صفراً خائبتين ، فعن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : (إن الله حييٌ كريم ، يستحي من عبده أن يبسط إليه يديه ثم يردهما خائبتين) (١).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي قال ﷺ : (ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها مأثم ولا قطيعة رحم. إلا أعطاه إحدى ثلاث :

إما أن يستجيب له دعوته ، أو يصرف عنه من السوء مثلها ، أو يدخر له من الأجر مثلها. قالوا : يا رسول الله إذاً نكثر ؟ قال - ﷺ - (الله أكثر) (٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال :

وأخرجه الترمذي في كتاب الدعوات ، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة ، برقم ٣٣٩٣ ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، سننه ٥ /٢٤٨.

(١) أخرجه الحاكم في كتاب الدعاء ، برقم ١٨٣١ ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي في التلخيص ، المستدرك ١ / ٦٧٥ ، وكذا برقم ١٩٦٢ ، المستدرك١/٧١٨ وأخرجه الترمذي في كتاب الدعوات ، باب رقم ١٠٤ ، حديث رقم ٣٣٦٧ ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، ورواه بعضهم ولم يرفعه ، سننه ٥ / ٣٢٦ ، وأخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ، باب الدعاء ، برقم ١٤٨٨ ، سننه ٢ / ٧٩ ، وأخرجه ابن ماجة في كتاب الدعاء ، باب رفع اليدين في الدعاء ، برقم ٣٨٦٥ سننه ٢ / ١٢٧١.

(٢) أخرجه الحاكم في الموضع السابق ، برقم ١٨١٦ ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، المستدرك ١ / ٦٧٠ ،

وأخرجه - بنحوه - الترمذي في كتاب الدعوات ، في أحاديث شتى ، برقم ٣٥٨٤ ، سننه ٥ / ٣٣٤.

(يُستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَل ، يقول :دعوتُ فلم يُستجبْ لي) (١).

* بل نطقت الأحاديث النبوية بما هو أعظم من ذلك ، حيث أخبر النبي ﷺ أن الدعاء هو سلاح المؤمن وعماد الدين ، ونور السماوات والأرض ، وأن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وأن البلاء والدعاء يعتلجان ، وأن القدر لا يرد إلا بالدعاء.

فعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السماوات والأرض) (٢).

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

(لا يغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات ، باب يستجاب للعبد ما لم يَعْجَلْ ، برقم ٦٣٤٠ ، صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ١١ / ١٤٥ ،

وأخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء ، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل ، برقم ٢٧٣٥ ، صحيح مسلم بشرح النووي ٩ / ٦٠ ،

وأخرجه أحمد في المسند ٩ / ٤٤٣ ، برقم ١٠٢٦١ ،

وأخرجه الترمذي في كتاب الدعوات ، باب من يستعجل في دعائه ، برقم ٣٣٩٨ ، سننه ٥ / ٢٥٠ ،

وأخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ، باب الدعاء ، برقم ١٤٨٤ ، سننه ٢ / ٧٨ ، وأخرجه ابن ماجة في كتاب الدعاء ، باب يستجاب لأحدكم ما لم يعجل برقم ٣٨٥٣ ، سننه ٢ / ١٢٦٦.

(٢) أخرجه الحاكم في كتاب الدعاء ، برقم ١٨١٢ ، وقال : هذا حديث صحيح ، ووافقه الذهبي في التلخيص المستدرك ١ / ٦٦٩.

ينـــزل ، وإن الـــبلاء لينـــزل فيتلقاه الدعاء فيعتَلِجان)[١].

وعن ابـــن عمـــر رضـــي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

(الدعاء ينفع مما نزل ومما لـــم ينـــزل فعلـــيكم عبـــاد الله بالدعاء)[٢].

وعن ثوبان رضي الله عنـــه قال : قال رسول الله ﷺ :

(لا يرد القدر إلا بالدعاء)[٣].

---

(١) يعتلجان أي يتصارعان ، والحديث أخرجه الحاكم في الموضع الـــسابق ، برقم ١٨١٣ ، وقـــال : هـــذا حـــديث صـــحيح الإســـناد ولـــم يخرجـــاه ، المستدرك ١ / ٦٦٩ ، ٦٧٠.

(٢) أخرجه الحاكم في الموضع السابق ، بـــرقم ١٨١٥ ، المـــستدرك ١ / ٦٧٠.

(٣) بعض حديث أخرجه الحاكم فـــي الموضع السابق ، برقم ١٨١٤ ، وقال : هذا حـــديث صـــحيح الإســـناد ولـــم يخرجاه ، ووافقه الذهبي في التلخيص ، المستدرك١/ ٦٧٠.

* والسؤال الذي يطرح نفسه بعد هذا القدر مـــن الكـــلام عـــن أهمية الدعاء هو: لماذا كل هـــذا الاهتمام بشأن الدعاء ؟

وللإجابة عن ذلك نقول :

إن الاهتمـــام بـــشأن الـــدعاء والالتجاء إلـــى الله تعـــالى فـــي الشدائد خاصة ! لأن العبد ضعيف ، وقدرته محدودة ، ومن ثَمَّ كان بحاجة إلى قوة أكبر يتقوى بهـــا ويركن إليهـــا ويعتمـــد عليهـــا ، خاصة في وقت الشدة.

وفي سير الأنبياء والصالحين ما يدل على ذلك.

فالقرآن الكـــريم – وهـــو أدق المصادر وأصـــدقها – حـــدثنا أن أنبياء الله عليهم السلام قد لجأوا إلى الدعاء عند الشدائد والمحن ، فهذا نوح عليه السلام يدعو ربه وقت الشدة قائلاً : (أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ)[٤]. وهذا أيوب عليـــه

---

(٤) آخر الآية ١٠ من سورة القمر.

السلام يلجأ إلى الله فـــي محنتـــه ويناجيه : (أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)[١] ، ويونس عليه السلام الذي نـــادى ربه في الظلمـــات : (لَّا إِلَهَ إِلَّـــا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّـــي كُنـــتُ مِـــنَ الظَّالِمِينَ)[٢] ، وهذا رسول الله ﷺ وخاتم الأنبيـــاء والمرســـلين يلجأ إلى ربه في محنة من المحن التي مَرَّ بها في تاريخ دعوتـــه ، فيقول – مناجياً ربه – حينما طرد من الطائف : (اللهم إليك أشـــكو ضعف قوتي ، وقلـــة حيلتـــي ، وهواني على الناس ، يـــا أرحـــم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى مَنْ تكلنـــي ؟ إلى بعيد يتجهمنـــي[٣] ؟ أم إلـــى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبـــالي ، ولكـــن عافيتك هي أوسع لـــي ، أعـــوذ بنور وجهك الذي أشـــرقت لـــه الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحلّ عليَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قـــوة إلا بك)[٤].

وفي محنـــة أخـــرى – فـــي غزوة بدر – يستقبل رســـول الله ﷺ القبلة ، ويناشد ربه ، مـــادًّا يديه يهتف بربه قائلاً : (اللهم ! أنجز لي ما وعدتني. اللهم ! آت ما وعدتني. اللهم إن تَهْلِكَ هـــذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبـــد في الأرض) ، فمـــا زال يهتـــف بربه مادّا يديه ، مستقبل القبلة ، حتى سقط رداءُهُ عن منكبيه ..... إلخ الحديث[٥].

---

(١) آخر الآية ٨٣ من سورة الأنبياء.

(٢) آخر الآية ٨٧ من سورة الأنبياء.

(٣) يتجهمني : يستقبلني بوجه كريه.

(٤) أورده ابـــن هـــشام فـــي الـــسيرة النبوية ٢ / ٤٧ ، وأورده الهيثمـــي – وضعفه – في المجمع٦/٣٥.

(٥) أخرجه مسلم في كتـــاب الجهـــاد والسير ، باب الإمداد بالملائكـــة فـــي

* فالدعاء شعار المؤمن دائماً في كل زمان ومكان ، وهؤلاء هم أهل الكهف يدعون ربهم في محنتهم قائلين : (رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) [١] ، وهذا مؤمن آل فرعون يقول : (وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) [٢] ، والصحابة الكرام والسلف الصالح أثر عنهم الدعاء واللجوء إلى الله عز وجل أكثر مما أثر عنهم اللجوء إلى القوة المادية والكثرة العددية.

* ألا ما أحوجنا الآن إلى تقوية سلاح الدعاء والاستعانة بالله تعالى والالتجاء إلى جنابه والابتهال إليه بالدعاء ، عسى الله سبحانه وتعالى أن يرفع عن الأمة هذه الغمة ، وعساه سبحانه أن يُقَوِّي - في رضاه - ضعفنا ، وأن يأخذ بنواصينا إلى الخير.

اللهم إنا نسألك الخير كله ، عاجله وآجله ، ما علمنا منه وما لم نعلم ، ونعوذ بك من الشر كله ، عاجله وآجله ، ما علمنا منه وما لم نعلم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين[٣].

غزوة بدر ، برقم ١٧٦٣ ، صحيح مسلم بشرح النووي ٦ /٣٢٧ ، وأخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، باب ومن سورة الأنفال ، برقم ٣٠٩٢ ، سننه ٥ / ٥٦.

(١) آخر الآية ١٠ من سورة الكهف.

(٢) من الآية ٤٤ من سورة غافر.

(٣) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله).

أخرجه الحاكم في كتاب الدعاء ، برقم ١٨٥٢ ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، المستدرك ١ / ٦٨١ وأخرجه الترمذي في كتاب الدعوات ، باب ما جاء في أن دعوة المسلم مستجابة ، برقم ٣٣٩٤ وقال هذا حديث حسن غريب ، سننه٥ / ٢٤٨ ، وأخرجه ابن ماجة في كتاب الأدب ، باب فضل الحامدين ، برقم ٣٨٠٠ ، سننه ٢ / ١٢٤٩.

الدرس العاشر : معية الله للمؤمنين.

قلنا في الدرس السابق إن غلام الدعوة واجه الطاغية المتأله بسلاح الدعاء واللجوء إلى الله تبارك وتعالى والتوكل عليه والثقة في معيته عز وجل له وكان الله مع الغلام يحفظه ويرعاه ، فتنقلب الأسباب وينجو الغلام ويهلك جنود الطاغية ، ويعود الغلام إلى الملك هادئاً مطمئناً واثقاً بربه عز وجل ويسأله الطاغية عن جنوده ، فيجيب الغلام في كل مرة : كفانيهم الله تعالى.

* إن معية الله تعالى درس جليل القدر ، عظيم النفع ، مستفاد من تلك الحادثة العظيمة ، حقاً إنه لدرس عظيم يريح النفس ويؤنسها ، ويشرح الصدر ويبعث فيه الطمأنينة والثقة.

وأعني بالمعية هنا معية المعونة والحفظ ، والنصر والتأييد ، وهي المعية الخاصة لعباد الله المؤمنين.

لأن معية الله لعباده - على ما ورد في القرآن - قسمان :

الأول : المعية العامة للناس جميعاً ، ومعناها معية العلم والإحاطة ، والرزق والتدبير ، ونحو ذلك مما يليق بذاته تعالى ويصلح للناس عامة ، ومنه قوله تعالى : (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ..) [١] أي معهم بعلمه وإحاطته.

وكذلك قوله تعالى : (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ) [٢].

---

(١) من الآية ٧ من سورة المجادلة.

(٢) أول الآية ١٠٨ من سورة النساء.

والثاني : المعية الخاصة. ولا تكون إلا للمؤمنين الصادقين المخلصين من عباد الله تعالى ، ومعناها : المعونة والحفظ والتأييد والنصر ، والرحمة والرعاية والعناية ، وما شابه ذلك من المعاني التي لا يستحقها إلا أهل الصدق والإخلاص من المؤمنين ، ومن ذلك قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) [١] ونحوها من الآيات.

* يقول ابن رجب الحنبلي – رحمه الله – في شرح قوله ﷺ : (احفظ الله تجده تجاهك) [٢] :

معناه : أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه وجد الله معه في كل أحواله حيث توجه ، يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه ويسدده ، فـ (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) [٣].

قال قتادة : من يتق الله يكن معه ، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تُغلب ، والحارس الذي لا ينام،والهادي الذي لا يضل.

كتب بعض السلف إلى أخ له : أما بعد. فإن كان الله معك فمن تخاف؟وإن كان عليك فمن ترجو؟

وهذه المعية الخاصة هي المذكورة في قوله تعالى لموسى وهارون : (قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) [٤] ، وقول موسى:(إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) [٥] ، وفي قول النبي ﷺ لأبي بكر وهما في الغار : (ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟لا تحزن إن الله معنا)[٦].

---

(١) آخر سورة النحل.

(٢) جزء من حديث سبق تخريجه في صفحة ٥٣ من هذا البحث.

(٣) الآية ٤٦ من سورة طه.

(٤) آخر الآية ٦٢ من سورة الشعراء.

(٥) متفق عليه. أخرجه البخاري في ثلاثة مواضع ، الأول في كتاب فضائل الصحابة باب مناقب المهاجرين

فهذه المعية الخاصة تقتضي النصر والتأييد والحفظ والإعانة ، بخلاف المعية العامة المذكورة في قوله تعالى : (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) [١] ، وقوله : (وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ)[٢].

فإن هذه المعية تقتضي علمه واطلاعه ومراقبته لأعمالهم ، فهي مقتضية لتخويف العباد منه ، والمعية الأولى تقتضي حفظ العبد وحياطته ونصره ، فمن حفظ الله وراعى حقوقه ، وجده أمامه وتُجاهه على كل حال ، فاستأنس به ، واستغنى به عن خلقه. أ. هـ[٣].

* ومن خلال استقراء الآيات التي تحدثت عن معية الله الخاصة بالمؤمنين يتضح لنا أن هذه المعية تكون في أخص أحوالها وقت الشدائد وفي مواطن الخوف والفزع.

فحين أُلْقِيَ إبراهيم – عليه السلام – في النار. تجلت له معية

وفضلهم ، برقم ٣٦٥٣ ، والثاني في كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة المنورة ، برقم ٣٩٢٢ ، والثالث في كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : (ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) ، برقم ٤٦٦٣ ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٧ / ١١ ، ٧ / ٣٠٢ ، ٨ / ١٧٦ ، ١٧٧.

وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي بكر ، برقم ٢٣٨١ ، صحيح مسلم بشرح النووي ٨ / ١٦٠ ، وليس عندهما عبارة (لا تحزن إن الله معنا).

(١) من الآية ٧ من سورة المجادلة.

(٢) من الآية ١٠٨ من سورة النساء.

(٣) جامع العلوم والحكم / ٢٣٤ ، شرح الحديث التاسع عشر.

الله المنقذة وصدر الأمر الإلهي إلى النار (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ) [١] ،

وحين خرج موسى – عليه السلام – ببني إسرائيل من مصر ، وأتبعهم فرعون بجنوده ، وتراءى الجمعان ، وأحيط بموسى ومن معه ، وبلغ به الخوف مبلغه ، فالبحر أمامهم والعدو وراءهم والموت واقع لا محالة ، وقتئذ قال أصحاب موسى – مظهرين عجزهم وضعفهم وقلة حيلتهم – (إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) [٢] ، لكن موسى – عليه السلام – الذي يستشعر معية الله تعالى له ، ويستمد منه سبحانه العون والتأييد ، يؤكد لقومه معية الله له قائلا لهم : (كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) [٣] ، وتتجلى لموسى – عليه السلام – معية الله المنقذة ، فيأتيه الأمر من الله مباشرة (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) [٤] هكذا بالفاء التعقيبية – (فأوحينا) – التي تدل على حضور المعونة والحفظ والتأييد والنصر ،

وحينما خرج رسولنا ﷺ مهاجرا إلى المدينة ، ودخل الغار

---

(١) الآية ٦٩ من سورة الأنبياء.

(٢) جاءوا بالجملة الاسمية مؤكدة بحرفي التأكيد – (إنا لمدركون) – للدلالة على تحقق الإدراك واللحاق وتنجيزهما ، وأراد بذلك التحزن وإظهار الشكوى طلباً للتدبر ، روح المعاني ١٩ / ١٢٦.

(٣) قوّى نفوسهم بأمرين : أحدهما (إن معي ربي) وهذا دلالة النصر والتكفل بالمعونة ، والثاني:(سيهدين) ، والهدى هو طريق النجاة والخلاص ، وإذا دله على طريق نجاته وهلاك أعدائه ، فقد بلغ النهاية في النصرة ، التفسير الكبير ٢٤ / ١١٩.

(٤) راجع الآيات ٥٢ : ٦٨ من سورة الشعراء.

مع صاحبه أبي بكر ، وأحاط الكفار بهما ، قال الصديق رضي الله عنه : يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. ويستشعر ﷺ معية الله المنقذة ، ويستصم بها ، ويوقن بتحققها فيرد على صاحبه قائلا : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا[١] ، وأدركته – ﷺ – معية الله تعالى ، فأنزل الله سكينته عليه ، هكذا أيضاً بالفاء التعقيبية – (فأنزل) – التي تدل على المعونة والإحاطة والحفظ من الله لعباده الصالحين ، وسرعة الاستجابة لهم حين يلجأون إليه ويلوذون بجنابه وسلطانه ويعتصمون بمعيته ، يقول تعالى : (إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [٢].

وفي هذه الآية وغيرها بشرى للمؤمنين الصادقين المخلصين ، وإن الله تعالى على نصرهم لقدير.

* ولنعلم جميعاً أن الله عز وجل لم يجعل معيته لعباده – المؤمنين الصادقين – جزافاً ، ولا محاباة لأحد ، ولا كرامة شخصية ، ولا حقاً مكتسباً لهم ، وإنما تتحقق المعية لمن حقق أسبابها.

فمعية الله تعالى – الخاصة – ليست منقطعة عن أسبابها وشروطها ، وإنما يستحقها من هو أهل لها ، فإذا أخذ العبد بأسباب المعية وفقه الله وهداه ،

---

(١) سبق تخريجه قريباً.

(٢) الآية ٤٠ من سورة التوبة.

وحفظه ورعاد ، وأيده ونصره وقوّاه.

ونلحظ ذلك في مثل قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) [١] ، وقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) [٢] ، وقوله تعالى : (إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) [٣] ، وقوله تعالى :(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) [٤] ، وقوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)[٥] ، وقوله تعالى : (وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) [٦] ، إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على أن الله تبارك وتعالى رتّبَ معيته لعباده على تحقق أسبابها ، فحينما أمرهم بالاستعانة بالصبر والصلاة وعدهم بمعيته لهم ، وحينما أمرهم بالثبات عند لقاء الأعداء وطاعة الله ورسوله وعدم التنازع وعدهم بمعيته لهم ، وحينما حثهم على الإيمان والتقوى والإحسان والصبر وعدهم بمعيته لهم ، والله عز وجل لا يخلف الميعاد.

لكن إذا افتقدت الأسباب انقطعت المعية بلا شك.

* وليس ذلك في وقت دون وقت ولا لفئة دون فئة ، وإنما ذلك من سنن الله تعالى الكونية ،

---

(١) الآية ١٥٣ من سورة البقرة.
(٢) الآيتان ٤٥،٤٦ من سورة الأنفال.
(٣) آخر سورة النحل.
(٤) آخر سورة العنكبوت.
(٥) أول الآية ٣٩ من سورة الحج.
(٦) آخر الآية ١٩٤ من سورة البقرة.

وصدق الله العظيم القائل : (وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) [١].

* إن استحضار المسلم معية الله عز وجل هو سلاح عظيم ، يتسلح به المؤمن في الشدائد ، فإذا استيقن المؤمن – صاحب الحق – معية الله تعالى واعتصم بها ، فإنه سيواجه الباطل بقوة الله تعالى التي لا تقهر ، لا بقوة العبد الضعيفة المحدودة ، وأنّى للباطل أن يقف أمام الجبار – سبحانه – ذي القوة المتين.

نسأل الله العلي القدير أن يحفظنا بحفظه ، ويؤيدنا بنصره ، ويحوطنا بمعيته ويرحمنا برحمته ، ويعمنا بإحسانه ، كما نسأله سبحانه وتعالى أن ينصر الإسلام وأن يعز المسلمين ، إنه سميع قريب مجيب الدعاء ، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) آخر الآية ٤٠ من سورة الحج.

الدرس الحادي عشر :

الأمور لا تجري – دائماً – بحسب الظاهر.

وهذا درس آخر نتعلمه من تلك الحادثة العظيمة في أكثر من موقف ، فقد بعث الملك إلى الساحر غلاماً نجيباً يعلمه السحر ، لكن الأمر لم يجري على ظاهره ، وتعلم الغلام شرع الله تعالى ، بل وأصبح داعياً إليه ، وحينما هَدَّدَ الملك جليسه والراهب بالعذاب إن لم يرجعا عن هذا الدين ، لم يجري الأمر على ظاهره ، بل ثبتا وتحملا نشر المنشار في مفرق رأسهما حتى الموت.

وحينما هَدَّدَ الملك الغلام بالقتل ، كان الظاهر أن يخاف الغلام – مع حداثة سنه – لكن الأمر لم يجري بحسب الظاهر ، وازداد الغلام صلابة في دينه وثقة بربه عز وجل.

وحينما قتل الملك الغلام ، وظن أنه بذلك قضى على هذا الدين ، وتلك الفتنة – حسب زعمه – لم يجري الأمر على ظاهره ، بل وقع ما كان يحذر منه هذا الطاغية المتأله ، وآمن الناس برب العالمين ، وهذا ما كان يخشاه الملك ، وحاول – بكل الوسائل – أن يتجنبه.

وحينما أمر الطاغية بشق الأخدود وإضرام النار فيه ، وإلقاء من لم يرجع عن دينه فيها ، كان الظن والظاهر أن يهاب الناس هذا الموقف الرهيب ، وأن يخافوا من تلك النار الموقدة ، وأن يرجعوا عن هذا الدين.

ولكن الأمر لم يجري على ظاهره ، وتمسك الناس بالإيمان وثبتوا عليه ، حتى وإن أدى بهم ذلك إلى الموت المحقق والإلقاء في النار.

هكذا فإن الأمور لا تجري دائماً بحسب الظاهر.

وتلك قاعدة عامة يؤكدها القرآن الكريم في كثير من مواضعه ، وتؤكدها السنة النبوية المطهرة في كثير من مواقفها ، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

ما قصه الحق تبارك وتعالى علينا في سورة الكهف ، من قصة موسى والخضر عليه السلام.

فحينما قام الخضر بخرق السفينة ، اعترض عليه موسى ، لأن في خرقها – بحسب الظاهر – غرق محقق لأهلها.

وحينما قتل الخضر الغلام ، اعترض عليه موسى ، لأن هذا الغلام الصغير – بحسب الظاهر – لم يرتكب ذنباً يستحق عليه القتل.

وحينما أقام الخضر الجدار ، اعترض عليه موسى ، لأن

أصحاب القرية – بحسب الظاهر – لا يستحقون يد العون والمساعدة ، أو على أقل تقدير له أن يطلب منهم الأجر على فعله هذا.

لكن الأمور لا تجري دائماً بحسب الظاهر كما نقول.

فالخضر – عليه السلام – خرق السفينة لتنجو من اغتصاب الملك الظالم ، وقتل الغلام لينقذ أبويه من طغيانه وكفره ، وبنى الجدار – لأهل قرية لئام – ليحفظ لليتيمين كنزهما المدفون حتى البلوغ[1].

وهذا ما وضّحه الخضر لموسى – عليهما السلام – لحكمه على الأمور بظواهرها.

• وحينما عقد الرسول ﷺ صلح الحديبية مع المشركين ظن الناس جميعاً أن في ذلك إهانة للإسلام والمسلمين ، لأنهم حكموا على بنود الصلح من حيث الظاهر ، لكن الأمر لم يجري على ظاهره ، بل كان هذا الصلح فتحاً مبيناً كما سمّاه القرآن الكريم[2].

• وقديماً قيل عن إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب ، قالوا ذلك بحسب الظاهر. وهدى الله عمر إلى الإسلام فأسلم ، بل كان إسلامه – رضي الله عنه – فتحاً وبركة ويمناً ونصراً للإسلام والمسلمين.

• فعلى الإنسان أن لا يحكم على الأمور بظواهرها ، فربما كان الأمر خيراً في ظاهره وهو شر في حقيقته ، وربما كان العكس ، ولذلك يوجه الحق تبارك وتعالى عباده إلى هذا الأمر قائلاً : (وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)[3] ، ويقول في

---

(١) راجع الآيات ٧١:٨٢ من سورة الكهف.

(٢) اقرأ إن شئت في ذلك سورة الفتح.

(٣) آخر الآية ٢١٦ من سورة البقرة.

موضع آخر : (فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) [١].

• وليتذكر الإنسان دائماً قول الله تعالى:(لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ..)[٢].

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يُنَوِّر أبصارنا ، ويشرح صدورنا ، ويفتح قلوبنا ، ويطلق بذكره ألسنتنا ، وأن يذهب همومنا ، وأن يكشف غمومنا.

إنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير.

الدرس الثاني عشر : النفوس مجبولة على قبول الحق إذا خُلِّي بينها وبينه.

رأينا في حادث أصحاب الأخدود أن الناس حينما خُلِّي بينها وبين دعوة الإسلام آمنوا بها ، وضحوا بأنفسهم في سبيلها ، مع أنهم قد خُدِعوا قبل ذلك بدعاوى الملك المتأله ، واستطاع الملك أن يحول بينهم وبين الحق الذي أنزله الله عز وجل ، وهذا شأن الباطل في كل زمان ومكان ، فإنه يحاول دائماً – عن طريق الترغيب والترهيب – أن يحول بين الناس وبين الحق الذي أنزله الله إليهم ، لكن النفوس البشرية مجبولة على قبول الحق إذا خلي بينها وبينه ، وتلك فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها ، قال تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [٣].

وقد بَيَّنَ النبي ﷺ أن أيَّ تغيير لمسار هذه الفطرة الإنسانية الأصيلة إنما يحدث بسبب الإنسان أو الشيطان.

---

(١) آخر الآية ١٩ من سورة النساء.

(٢) من الآية ٢٣ من سورة الحديد.

(٣) الآية ٣٠ من سورة الروم.

أما التغيير على يد البشر فوضحه الرسول ﷺ في قوله : (ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تُنتَجُ البهيمةُ بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء) [١].

معناه أن كل مولود يولد متهيئاً للإسلام.

قال ابن حجر في الفتح :

(والمراد تمكن الناس من الهدى في أصل الجبلة ، والتهيؤ لقبول الدين ، فلو ترك المرء عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها ، لأن حسن هذا الدين ثابت في النفوس ، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية كالتقليد ، وإلى هذا مال القرطبي في (المفهم) فقال : المعنى : أن الله خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق ، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات ، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ، ودين الإسلام هو الدين الحق ، وقال ابن القيم : ليس المراد بقوله (يولد على الفطرة) أنه خرج من بطن أمه يعلم الدين ، لأن الله يقول : (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أخرجه البخاري في كتاب الجنائز في ثلاثة مواضع ، الأول والثاني في باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ، برقمي ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، والثالث في باب ما قيل في أولاد المشركين ، برقم ١٣٨٥ ، وأخرجه كذلك في كتاب التفسير ، باب ومن سورة الروم ، برقم ٤٧٧٥ صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ٣ / ٢٦٠ ، ٣ / ٢٩٠ ، ٨ / ٣٧٢.
وأخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، برقم ٢٦٥٨ صحيح مسلم بشرح النووي ، ٨ / ٤٥٨.

مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا)[١].

ولكن المراد أن فطرته مقتضية لمعرفة دين الإسلام ومحبته ، فنفس الفطرة تستلزم الإقرار والمحبة ، وليس المراد قبول الفطرة لذلك ، لأنه لا يتغير بتهويد الأبوين مثلاً بحيث يخرجان الفطرة عن القبول ، وإنما المراد أن كل مولود يولد على إقراره بالربوبية ، فلو خلي وعدم المعارض لم يعدل عن ذلك إلى غيره ، كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من ارتضاع اللبن حتى يصرفه عنه صارف ... أ. هـ[٢].

* وأما التغيير الذي يحدث على يد الشياطين فقد وضحه النبي ﷺ فيما يرويه عن رب العزة تبارك وتعالى حيث يقول عز وجل :

(إني خلقت عبادي حُنَفَاء كُلَّهُمْ ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتَالَتْهُمْ عن دينهم. وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أُنزِلْ به سُلطاناً ....) الحديث[٣].

* وهذا يوضح لنا بجلاء أن النفوس البشرية مجبولة على قبول الحق والتمسك به ، لكن قد يطرأ عليها غير ذلك بمؤثرات خارجية وفعل فاعل ، فإذا خلي بينها وبين الحق لم تعدل عنه شيئاً.

وأهل الباطل – في كل زمان ومكان – يعلمون ذلك ، لذا هم

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة والنار ، برقم ٢٨٦٥ ، صحيح مسلم بشرح النووي ٩ / ٢١٥.

(١) أول الآية ٧٨ من سورة النحل.
(٢) فتح الباري ٣ / ٢٩٣، ٢٩٤.

يحاولون دائماً أن يحولوا بين الناس والحق ، كما كان كفار قريش يفعلون في صدِّهم الناس عن رسول الله ﷺ وعن دين الله عز وجل ، وكان دأبهم أن يحولوا بين رسول الله ﷺ وبين لقاء مَنْ جاء من خارج مكة ، حتى إنهم قسَّموا أنفسهم على الطرقات للقيام بتلك المهمة ، وقد سجَّل الله تبارك وتعالى عليهم ذلك في قوله سبحانه : (كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ)[١] ، قال البيضاوي : (يعني الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم للتنفير عن الإيمان برسول الله ﷺ) أ. هـ[٢].

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وأعنا على اجتنابه ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر ، ووفقنا لما تحبه وترضاه يا رب العالمين. اللهم آمين ...

الدرس الثالث عشر : الأخذ بأسباب الحذر والكتمان.

وهذا درس آخر مستفاد من قول الراهب للغلام : (فإن ابتليت فلا تدل عليَّ).

وتوجيه الراهب للغلام بألا يدل عليه إن ابتلي ، كان من باب الأخذ بأسباب الحذر والكتمان ، ولم يكن جُبْناً أو خوفاً ، إذ أن الراهب صبر على النشر بالمنشار حتى وقع شقاه ، ولم يترك دينه ، فهل يمكن أن يُتهم بعد ذلك بالجُبْن أو الخوف ، أم أن المسألة هي أخذ بالأسباب ؟

وهذا أمر حث عليه القرآن في كثير من آياته ، من ذلك قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ)[٣] ، وقال تعالى في

(١) الآية ٩٠ من سورة الحجر.
(٢) أنوار التنزيل ١ / ٤٥١.

(٣) أول الآية ٧١ من سورة النساء.

حديثه عن مؤمن آل فرعون : (وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ....) [١] ، وقال تعالى حكاية عن أصحاب الكهف : (فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۞ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا) [٢].

وفي السيرة النبوية ما يدل على ذلك في كثير من المواقف منها :

مرحلة الدعوة السرية (ثلاث سنوات) ، واختيار النبي ﷺ لدار الأرقم وما كان فيه من حذر وسرية ، وكتمان النجاشي إسلامه ، وأحداث هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة. كلها تدل على الدرجة العالية في السرية والحذر والكتمان ، وكتمان نعيم بن مسعود إسلامه يوم الخندق ومدى الفائدة التي عادت على المسلمين نتيجة لذلك.

إلى غير ذلك من الأحداث التي ترشد إلى لزوم الأخذ بأسباب الحذر والكتمان ، ثم التوكل على الله تعالى.

ثم إنه بعد الأخذ بالأسباب قد يُقَدِّر الله تعالى غير ما نريد ، فلا يكن ذلك سبباً لإهمال الأخذ بالأسباب ، أو تخطيء أنفسنا ، فالأمور كلها بيد الله تبارك وتعالى ، : (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[٣].

إن الراهب قد أخذ بأسباب الحذر والكتمان ، ومع ذلك كشف الله أمره ، وقَدَّر غير ما أراد الراهب ، وقدَّر الله سبحانه غالب ، وفيه كل الخير إن شاء الله.

• على أن الحذر والسرية والكتمان في أمر يتعلق بالدعوة الإسلامية قد أصبح واجباً في واقعنا المعاصر ، لما يتعرض له أهل الإسلام في شتى بقاع الأرض من عمليات الإجهاض بحجة القضاء على الإرهاب والتطرف والأصولية وما شابه هذه الألفاظ.

وكثيراً ما يلجأ أعداء الإسلام إلى العمل السري في كثير من الجوانب ، وأصبحنا وأمسينا نقرأ ونسمع عن : المخابرات السرية ، والتجسس السري ، والمطومات السرية ، والعملاء السريين ، والأبحاث السرية ، والاتفاقات والعلاقات السرية ، ونحو ذلك.

وعلينا أن نحاربهم بمثل ما يحاربونا به ، وإلا فلا نلومنَّ إلا أنفسنا...

نسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد والإخلاص في القول والعمل ، وأن يلهمنا رشدنا ، وأن يدبر لنا فإننا لا نحسن التدبير ،

إنه نعم المولى ونعم النصير

...

• ثم إن المتدبر لحادثة أصحاب الأخدود سيقف على دروس أخرى غير ما ذكرت ، أذكر منها إجمالاً خشية الإطالة أكثر من ذلك :

١ – الاعتبار بما جرى للسابقين.

٢ – قسوة القلوب الكافرة رغم وضوح المعالم الدينية.

٣ – قسوة الباطل في الانتقام.

٤ – سلطة الملوك المستبدين وعدم اكتراثهم بالرعية والشعب.

٥ – أن من خاف الله خاف منه كل شيء.

---

(١) أول الآية ٢٨ من سورة غافر.

(٢) آخر الآية ١٩ والآية ٢٠ من سورة الكهف.

(٣) آخر الآية ٢١ من سورة يوسف.

٦ – لا بقاء للباطل أمام الحق إلا بالتستر بالقوة ، والتحكم بالظلم والطغيان.

وغير ذلك من الدروس الأخرى ، وأحسب أن فيما ذكر غُنية ...

والله تعالى من وراء القصد

• وأخيرا

قد يتساءل البعض : ما الحكمة في تمكين أهل الباطل من المؤمنين الصادقين ، وهلا نجاهم الله تعالى من أعدائهم ؟

وللجواب عن ذلك نقول : إن الله تعبَّد عباده بتحقيق أمرين :

الأول : إقامة المجتمع الإسلامي.

والثاني : السعي إلى ذلك في طرق شائكة.

والحكمة من ذلك أن تتحقق عبودية الإنسان لله تعالى ، وأن يمحص الله أهل الصدق من المنافقين ، وأن يتخذ الله من المؤمنين شهداء ، وأن يتجلى المعنى التنفيذي للمبايعة التي جرت بين الله وعباده المؤمنين ، والتي صَرَّحَ الحق تبارك وتعالى بها في قوله : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ...) [1].

وأيّ معنى كان يبقى للتوقيع على صك هذه المعاهدة ، لو أن كل ما جاء في مضمونها وَهْمٌ لا يتحقق ؟ بل وأي قيمة تبقى حينئذٍ لهذا التوقيع حتى يحرز به صاحبه الجنة والسعادة الأبدية الخالدة.

والمشكلة في أساسها إنما تطوف في رأس مَنْ قَدَّرَ هذه الحياة الفانية العاجلة أكثر من قدرها الحقيقي ، وأولاها أكثر مما تستحق من الاهتمام ، وفي المقابل ضعف تعلقه بالحياة الباقية الآخرة.

---

(١) أول الآية ١١١ من سورة التوبة.

وتلك هي آية انعدام الإيمان ، أو ضعفه في النفس على أقل تقدير. ومثل هؤلاء لا يُنتظر منهم أن يغامروا بروح ولا مال.

أما أهل الإيمان والصدق فالمشكلة غير مُتَصَوَّرة لديهم من أساسها ، فلذة الحياة الدنيا في يقينهم أقل شأناً من أن تحبس المسلم عن أداء أصغر طاعة يتقرب بها إلى خالقه سبحانه وتعالى.

وما التضحية بالروح – في يقينهم – إلا الانطلاقة من سجن الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وأنعِمْ بها من غاية،هي كل أمل المسلم في حياته التي يعيشها.. [1]

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله معلقاً على حادث أصحاب الأخدود :

(لم يكن بُدّ من هذا النموذج الذي لا ينجو فيه المؤمنون ، ولا يُؤْخَذُ فيه الكافرون ! ذلك ليستقر في حس المؤمنين – أصحاب دعوة الحق – أنهم قد يدعون إلى نهاية كهذه النهاية في طريقهم إلى الله ، وأن ليس لهم من الأمر شيء ، إنما أمرهم وأمر العقيدة إلى الله ، إن عليهم أن يؤدوا واجبهم ثم يذهبوا.

وواجبهم أن يختاروا الله ، وأن يؤثروا العقيدة على الحياة ، وأن يستعلوا بالإيمان على الفتنة ، وأن يصدقوا الله في العمل والنية ، ثم يفعل الله بهم وبأعدائهم – كما يفعل بدعوته ودينه – ما شاء ، وينتهي بهم إلى نهاية من تلك النهايات التي عرفها تاريخ الإيمان ، أو إلى غيرها مما يعلمه هو ويراه. إنهم أجراء عند الله ، أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا ، عملوا

---

(١) فقه السيرة للبوطي / ١٨٩ ، ١٩٠ بتصرف.

وقبضوا الأجر المعلوم ، وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أي مصير ، فذلك شأن صاحب الأمر،لا شأن الأجير).. (١)

وبعد :

فهذا ما وفقني الله تعالى إلى كتابته في هذا البحث ، وقد اجتهدت قدر المستطاع للوصول به إلى هذا النحو.

فما كان فيه من خير فمن الله وحده ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وما وقع فيه غير ذلك فمن نفسي وتقصيري ، وأرجو من الله سبحانه وتعالى غفران الذنوب ، وستر العيوب.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ....

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

دكتور

أحمد رمضان مصطفى دياب

مدرس التفسير وعلوم القرآن

كلية أصول الدين بالقاهرة

جامعة الأزهر

(١) معالم في الطريق / ١٨١.

(فهرس المراجع والمصادر)

١ - القرآن الكريم. كلام رب العالمين.

٢ - إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ، للبناء. ط دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

٣ - إحياء علوم الدين ، للإمام الغزالي ، ط دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ.

٤ - الأدب المفرد ، للإمام البخاري ، تحقيق : أحمد عبد الرازق البكري ، ط دار السلام بالقاهرة ، الطبعة الثانية سنة ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥م.

٥ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، المشهور بتفسير أبي السعود ، ط دار الفكر - بيروت - بدون تاريخ.

٦ - إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول ، للشوكاني ، تحقيق : محمد سعيد البدري ، ط مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.

٧ - الاستيعاب في أسماء الأصحاب ، لابن عبد البر ، مطبوع على هامش كتاب الإصابة الآتي.

٨ - الإصابة في تمييز الصحابة ، لابن حجر العسقلاني ، ط دار الكتاب العربي - بيروت - بدون تاريخ.

٩ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، للقاضي البيضاوي ، المشهور بتفسير البيضاوي ، ط الحلبي بمصر ، الطبعة الأولى - بدون تاريخ.

١٠ - البحر المحيط ، لأبي حيان ، ط دار الفكر - بيروت - سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

١١ - البرهان في علوم القرآن ، للزركشي. تحقيق :

محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط الحلبي بمصر ، الطبعة الأولى سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م.

١٢ - تاريخ الخلفاء ، للسيوطي ، تحقيق : جمال مصطفى محمود ، ط دار الفجر بالقاهرة ، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.

١٣ - تربية الأولاد في الإسلام ، لعبد الله ناصح علوان ، ط دار السلام بالقاهرة ، الطبعة السابعة عشر ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م.

١٤ - تفسير الخازن ، المُسَمَّى : لباب التأويل في معاني التنزيل ،ط دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٤٢٥ هـ -٢٠٠٤م.

١٥ - تفسير القرآن العظيم ، المشهور بتفسير ابن كثير ، ط دار الحديث بالقاهرة ، الطبعة الثانية سنة ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م.

١٦ - التفسير الكبير ، أو مفاتيح الغيب ، للإمام الرازي ، ط دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٤١١ هـ - ١٩٩٠م.

١٧ - التفسير والمفسرون ، للذهبي. ط مكتبة وهبة بالقاهرة ، الطبعة السادسة سنة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.

١٨ - التلخيص ، للذهبي ، مطبوع على هامش المستدرك ، وسيأتي.

١٩ - جامع البيان في تأويل آي القرآن ، المشهور بتفسير الطبري ، ط الحلبي بمصر ، الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.

٢٠ - جامع العلوم والحكم ، لابن رجب الحنبلي ، تحقيق : محمود النادي ط دار الهيثم بالقاهرة ، سنة ٢٠٠٤م.

٢١ - الجامع لأحكام القرآن ، المشهور بتفسير القرطبي ، ط دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الخامسة سنة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م.

٢٢ - حاشية الجمل على الجلالين ، المُسَمَّاة : الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، ط الحلبي بمصر بدون تاريخ.

٢٣ - حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ، المُسَمَّاة : عناية القاضي وكفاية الراضي ، للشهاب الخفاجي ، ط دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.

٢٤ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، للسيوطي ، ط دار الفكر - بيروت - سنة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.

٢٥ - دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، لمحمد بن علان ، ط دار الفكر - بيروت - الطبعة الثالثة ، بدون تاريخ.

٢٦ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، المشهور بتفسير الألوسي ، ط دار الفكر - بيروت - سنة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.

٢٧ - رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، للإمام النووي ، ط المكتبة التجارية الكبرى بمصر بدون تاريخ.

٢٨ - سنن ابن ماجة ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، ط الحلبي بمصر بدون تاريخ.

٢٩ - سنن أبي داود ، ط دار الحديث بالقاهرة ، سنة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

٣٠ - سنن الترمذي ، ط دار الفكر - بيروت - سنة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م.

٣١ – السيرة النبوية ، لابن هشام ، تحقيق : طه عبد الرءوف سعد ، ط الحلبي بمصر ، بدون تاريخ.

٣٢ – الصحاح ، المُسَمَّى : تاج اللغة وصحاح العربية ، للجوهري ، تحقيق : شهاب الدين أبو عمرو ، ط دار الفكر – بيروت – الطبعة الأولى ، سنة ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨م.

٣٣ – صحيح البخاري بشرحه فتح الباري ، ط دار الريان بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٦م.

٣٤ – صحيح مسلم بشرح النووي ، ط دار الحديث بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤م.

٣٥ – عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، لابن القيم ، ط مكتبة الإيمان بالمنصورة – مصر – الطبعة الأولى سنة ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤م.

٣٦ – فتح القدير ، للشوكاني ، ، ط دار الفكر – بيروت – بدون تاريخ.

٣٧ – فقه السيرة النبوية ، للبوطي ، ط دار السلام بالقاهرة ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤م.

٣٨ – الفوائد ، لابن القيم ، ط دار الريان بالقاهرة ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.

٣٩ – في ظلال القرآن ، للشهيد سيد قطب ، ط دار الشروق ، الطبعة الرابعة والثلاثون ، سنة ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤م.

٤٠ – القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب ، لعبد الفتاح القاضي ، ط الحلبي بمصر ، بدون تاريخ.

٤١ – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل

في وجوه التأويل ، المشهور بتفسير الكشاف ، للزمخشري ، ط دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م.

٤٢ – لسان العرب ، لابن منظور ، ط دار صادر – بيروت – الطبعة الثالثة سنة ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤م.

٤٣ – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للهيثمي ، ط دار الكتب العلمية – بيروت – سنة ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م

٤٤ – مختصر في شواذ القرآن ، لابن خالويه ، ط مكتبة المتنبي بالقاهرة بدون تاريخ.

٤٥ – المستدرك على الصحيحين ، للحاكم النيسابوري – وبهامشه كتاب التلخيص للذهبي – ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا – ، ط دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى سنة ١٤١١ هـ – ١٩٩٠م.

٤٦ – المسند ، للإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وحمزة أحمد الزين ، ط دار الحديث بالقاهرة ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.

٤٧ – مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف ، لمحمد عليان المرزوقي ، مطبوع على هامش كتاب الكشاف للزمخشري ، السابق ذكره.

٤٨ – معالم في الطريق ، للشهيد سيد قطب.

٤٩ – مفردات غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، ط دار المعرفة – بيروت – بدون تارخ.

والله أعلم

﴿ فهرس الموضوعات ﴾

الموضوع	الصفحة
المقدمة.	٦٥٥
أصحاب الأخدود في القرآن الكريم.	٦٥٨
أصحاب الأخدود في السنة النبوية.	٦٦٠
الدروس المستفادة من حادث أصحاب الأخدود	٦٧٧
الدرس الأول : تفسير القرآن بالسنة.	٦٧٧
الدرس الثاني : قداسة الدين والعقيدة فوق كل قداسة.	٦٨٣
الدرس الثالث : التضحية في سبيل الله.	٦٨٥
الدرس الرابع : ملازمة البلاء للدعوات الصادقة والصبر عليه.	٦٩٢
الدرس الخامس : دوام الصراع بين الحق والباطل.	٧٠٢
الدرس السادس : ثبوت الكرامات ووقوعها للأولياء.	٧٠٦
الدرس السابع : جواز الكذب لمصلحة شرعية.	٧١٥
الدرس الثامن : الاعتناء بتربية النشء.	٧٢٣
الدرس التاسع : الالتجاء إلى الله بالدعاء في الشدائد.	٧٣١
الدرس العاشر : معية الله للمؤمنين.	٧٣٩
الدرس الحادي عشر : الأمور لا تجري دائما بحسب الظاهر.	٧٤٦
الدرس الثاني عشر النفوس مجبولة على قبول الحق إذا خلي بينها وبينه.	٧٤٨
الدرس الثالث عشر : الأخذ بأسباب الحذر والكتمان.	٧٥١
بعض الدروس المجملة.	٧٥٣
الحكمة في تمكين أهل الباطل من المؤمنين.	٧٥٣
فهرس المراجع والمصادر.	٧٥٧
فهرس الموضوعات.	٧٦٢